المكتبة الأزهرية

مخطوطة

مداواة النفوس في تهذيب الأخلاق

المؤلف

علي بن أحمد بن سعيد (ابن حزم الأندلسي)

بالبحث وأثناء الفهرسة تبين أن :-

عنوان الكتاب: مداواة النفوس في تهذيب الأخلاق.

اسم المؤلف: علي بن أحمد بن سعيد، أبو محمد، المعروف بابن حزم ت ٤٥٦هـ.

الشيخ الشافعي
عبد الله حسن
٢٠/٧/١٩٩١م.

خط أندلسي قديم
٦٦ ورقة
٢١×١٥
مسطرة ١٣

[illegible] ٨٦

توالد [illegible] محمد [illegible]
عشية يوم الأربعاء [illegible]
[illegible] التاسع [illegible]
اثنين وتسعين وستة [illegible]
الفقير إلى الله [illegible] محمد [illegible]

رواية بهرام

٤١١

كتاب الأخلاق والسير تأليف أبي محمد ابن حزم
صاحب الملل والنحل الكبير
غير ملل النحل للشهرستاني
١٢٧

[illegible]

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

كتاب الأخلاق والسير

قال أبو محمد علي بن أحمد بن حزم رضي الله عنه
الحمد لله على عظيم منته وصلى الله على محمد عبده وخاتم
أنبيائه ورسله وسلم تسليما وأبرأ إلى الله تعالى من الحول
والقوة، وأستعينه على كل ما يعصم في الدنيا من جميع
المخاوف والمكاره ويخلص في الآخرة من كل هول
ومضيق. **أما بعد** فإني جمعت في كتابي هذا
معاني كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى بمرور
الأيام وتعاقب الأحوال بما منحني عز وجل من التهمم
بتصاريف الزمان والإشراف على أحواله حتى

أنفقت في ذلك أكثر عمري وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له
والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر
النفوس وعلى الازدياد من فضول المال وزممت كل
ما سبرت من ذلك بالكتاب لينفع الله تعالى من شاء
من عباده ممن يصل إليه مما أتعبت فيه نفسي وأجهدتها
فيه وأطلت فيه فكري فيأخذه عفوا وأهديته
إليه هنيئا فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال وعقد
الأملاك إذا تدبره ويسره الله تعالى لاستعماله
وأنا راج من الله تعالى في ذلك أعظم الأجر لنيتي
في نفع عباده وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ومداواة
علل نفوسهم وبالله أستعين

فصل في مداواة النفوس
وإصلاح الأخلاق

لذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه، ولذة الحكيم
بحكمته، ولذة المجتهد لله تعالى باجتهاده، أعظم من
لذة الآكل بأكله، والشارب بشربه، والواطئ بوطئه
والكاسب بكسبه، واللاعب بلعبه، والآمر بأمره.
وبرهان ذلك أن الحكيم والعالم والعاقل والعامل
واجدون لسائر اللذات التي سمينا كما يجدها المنهمك
فيها، ويحسونها كما يحسها المقبل عليها، وقد تركوها
وأعرضوا عنها، وآثروا طلب الفضائل عليها، وإنما يحكم
في الشيئين من عرفهما، لا من عرف أحدهما ولم يعرف
الآخر. **إذا** تعقبت الأمور كلها فسدت عليك
وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا إلى
أن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة فقط؛ لأن كل
أمل ظفرت به فعقباه حزن، إما بذهابه عنك وإما

بذهابك عنه، ولا بد من أحد هذين الشيئين إلا
العمل لله عز وجل، فعقباه على كل حال سرور في عاجل
وآجل؛ أما في العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس، وإنك
به معظم من العدو والصديق، وأما في الآجل فالجنة.
تطلبت غرضا يستوي الناس كلهم في استحسانه
وفي طلبه، فلم أجده إلا واحدا، وهو طرد الهم، فلما
تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه
فقط، ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم على اختلاف
أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإراداتهم لا
يتحركون حركة أصلا إلا فيما يرجون به طرده، ولا ينطقون
بكلمة أصلا إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم؛ فمن
مخطئ وجه سبيله، ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب
وهو الأقل من الناس في الأقل من أموره. فطرد الهم

مذهب فما اتفقت الأمم كلها من خلق الله تعالى
العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء وبعاقبته عالم
الحساب على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيئا سواه
وكل غرض غيره، وفي الناس من لا يستحسنه إذ
في الناس من لا يهتدي له فلا يعمل للآخرة، ومن الناس
من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق
وفي الناس من يؤثر الخمول بتقواه وإرادته على بعد
الصوت، وفي الناس من لا يريد المال ويؤثر عدمه على
وجوده ككثير من الأنبياء عليهم السلام ومن تلاهم
من الزهاد والفلاسفة ومن الناس من يبغض اللذات
بطبعه ويستنقص طالبها كمن ذكرنا من المؤثرين
فقد المال على اقتنائه ومن الناس من يؤثر الجهل على
العلم كأكثر من ترى من العامة وهذه هي أغراض

الناس التي لا غرض لهم سواها وليس في العالم من
كان إلى أن يتناهى أحد يستحسن الهم ولا يريد طرده
عن نفسه فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع
وانكشف لي هذا السر العجيب وأنار الله تعالى لفكري
هذا الكنز العظيم بحثت عن سبيل موطئة على الحقيقة
إلى طرد الهم الذي هو المطلوب للنفس الذي اتفق جميع
نوع الإنسان الجاهل منهم والعالم والصالح والطالح
على السعي له فلم أجدها إلا التوجه إلى الله تعالى
بالعمل للآخرة، وإلا فإنما طلب المال طلابه ليطردوا
طلب به عن أنفسهم هم الفقر وإنما الصيت من طلبه
ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها وإنما
طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم فوتها
وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به هم الجهل وإنما

الألوكة

هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من يطلب
ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحد ومغيب
أحوال العالم عنه وإنما أكل من أكل وشرب من
شرب ونكح من نكح ولبس من لبس ولعب من لعب
واكتن من اكتن وركب من ركب ومشى من مشى وتودع
من تودع ليطردوا عن أنفسهم هم أضداد هذه
الأفعال وسائر الهموم **وفي كل** ما ذكرنا
لمن تدبره هموم حادثة لا بد من عوارض تعرض في
خلالها وتعذر ما يتعذر منها وذهاب ما وجد منها
والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة وأيضا نتائج
سوء تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك
من خوف منافس أو طعن حاسد أو اختلاس راغب
أو اقتناء عدو مع الذم والإثم وغير ذلك ه

ووجدت العمل للآخرة سالما من كل
عيب خالصا من كل كدر موصلا إلى طرد الهم
على الحقيقة ووجدت العامل للآخرة إن بلي بمكروه
في تلك السبيل لم يهتم بل يسر إذ رجاؤه في عاقبة
ما ينال منه عون له على ما يطلب وزائد في الغرض
الذي إياه يقصد ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله
عائق لم يهتم إذ ليس مواخذا بذلك فهو غير مؤثر
فيما يطلب ووجدته إن قصد بالأذى سر وإن نكبته
نكبة سر وإن تعب فيما سلك فيه سر فهو في
سرور متصل أبدا وغيره بخلاف ذلك أبدا ه
فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهم
وليس له إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى فما
عدا هذا فضلال وسخف **لا تبذل** نفسك إلا فيما

فهو أغلى منهما وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل
في دعاء إلى حق وفي حماية الحريم وفي دفع هوان
لم يوجبه عليك خالقك عز وجل وفي نصر مظلوم
وباذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى
لا مروءة لمن لا دين له، العاقل لا يرى لنفسه ثمنا
إلا الجنة، لإبليس في ذم الرياء حبالة وذلك أنه
رب ممتنع من فعل خير خوف أن يظن به الرياء ه

باب عظيم

من أبواب العقل والراحة وهو اطراح المبالاة بكلام
الناس واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل بل
هذا باب العقل كله والراحة كلها من قدر أنه
يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون من
حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن

آلمتها في أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس إياه
أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه، لأن مدحهم
إياه إن كان بحق وبلغه مدحهم له أسرى ذلك فيه
العجب فأفسد بذلك فضائله وإن كان بباطل فبلغه
فسر فقد صار مسرورا بالكذب وهذا نقص شديد
وأما ذم الناس إياه فإن كان بحق فبلغه فربما كان
ذلك سببا إلى تجنبه ما يعاب عليه وهذا حظ عظيم
لا يزهد فيه إلا ناقص وإن كان بباطل فبلغه فصبر
اكتسب فضلا زائدا بالحلم والصبر وكان مع ذلك
غانما لأنه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل فيحظى
في دار الجزاء أحوج ما يكون إلى النجاة بأعمال لم
يتعب فيها ولا تكلفها وهذا حظ عظيم لا يزهد
فيه إلا مجنون وأما إن لم يبلغه مدح الناس

إياه فكلامهم وسكوتهم سواء وليشكر الذام منهم
إياه لأنه غانم للأجر على كل حال بلغه ذمهم أو لم
يبلغه **ولولا** قول رسول الله صلى الله عليه
وسلم في الثناء الحسن ذلك عاجل بشرى المؤمن
لوجب أن يرغب العاقل في الذم بالباطل أكثر من
رغبته في المدح بالحق ولكن إذ جاء هذا القول
فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل فإنما تجب البشرى
بما في الممدوح لا بنفس المدح **ليس** بين الفضائل
والرذائل ولا بين الطاعات والمعاصي إلا نفار النفس
وأنسها فقط فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل
والطاعات ونفرت عن الرذائل والمعاصي والشقي من
أنست نفسه بالرذائل والمعاصي ونفرت عن الفضائل
والطاعات وليس ها هنا إلا صنع الله تعالى وحفظه

طالب الآخرة ليفوز في الآخرة متشبه بالملائكة
وطالب الشر متشبه بالشياطين وطالب الصوت والغلبة
متشبه بالسباع وطالب اللذات متشبه بالبهائم
وطالب المال لعين المال لا لينفقه في الواجبات والنوافل
المحمودة أسقط وأرذل من أن يكون له في شيء
من الحيوان شبه ولكنه يشبه الغدران التي في
الكهوف في المواضع الوعرة لا ينتفع بها شيء من
الحيوان **فالعاقل** لا يغتبط بصفة يفوقه
فيها سبع أو بهيمة أو جماد وإنما يغتبط بتقدمه
في الفضيلة التي أبانه الله تعالى بها عن السباع
والبهائم والجمادات وهي التمييز الذي يشارك
فيه الملائكة **فمن** سر بشجاعته التي يضعها
في غير حقها لله عز وجل فليعلم أن النمر أجرأ

منه وأن الأسد والذيب والفيل أشجع منه
ومن سره بقوة جسمه فليعلم أن البغل والثور والفيل
أقوى منه جسما ومن سره بحمله للأثقال فليعلم
أن الحمار أحمل منه ومن سره بسرعة عدوه فليعلم
أن الكلب والأرنب أسرع عدوا منه ومن
سره بحسن صوته فليعلم أن كثيرا من الطير أحسن
صوتا منه وأن أصوات المزامير ألذ وأطرب من
صوته فأي فخر أو أي سرور في ما تكون فيه
البهائم متقدمة له لكن من قوي تمييزه واتسع
علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك فإنه لا يتقدمه
فيه من الوجوه إلا الملائكة وخيار الناس **قول**
الله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس
عن الهوى فإن الجنة هي المأوى جامع لكل فضيلة

لأن نهي النفس عن الهوى صورة عما عن الطبع الغضبي
والطبع الشهواني لأن كليهما واقع تحت موجب الهوى
فلم يبق إلا استعمال النفس للنطق الموضوع فيها
الذي بانت به عن البهائم والحشرات والسباع **قول**
رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي
استوصاه لا تغضب. وأمره عليه السلام أن يحب المرء
لغيره ما يحب لنفسه جامعان لكل فضيلة لأن في نهيه
عن الغضب ردع النفس ذات القوة الغضبية عن
هواها. وفي أمره عليه السلام بأن يحب المرء لغيره
ما يحب لنفسه ردع النفس عن القوة الشهوانية
وجمع لأزمة العقل الذي هو [illegible] النطق الموضوع
في النفس الناطقة **رأيت** أكثر الناس
إلا من عصم الله تعالى وقليل ما هم يتعجلون الشفا

الألوكة

والهم والتعب لأنفسهم في الدنيا ويحتقبون عظيم
الإثم الموجب للنار في الآخرة بما لا يحظون معه
بنفع أصلا من نيات خبيثة يضمرون عليها من تمني
الغلاء المهلك للناس وللصغار ومن لا ذنب له وتمني
أشد البلاء لمن يكرمونه ومن علموا يقينا أن تلك
النيات الفاسدة لا تعجل لهم شيئا مما يتمنونه أو يوجب
كونه وأنهم لو صفوا نياتهم وحسنوها لتعجلوا الراحة
لأنفسهم ويتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم ولاقتنوا
بذلك عظيم الأجر في المعاد من غير أن يؤخر ذلك
شيئا مما يريدونه أو يمنع كونه فأي غبن أعظم من هذه
الحال التي نبهنا عليها وأي سعد أعظم من التي دعونا
إليها **إذا حققت** مدة الدنيا لم تجدها إلا الآن
الذي هو فصل الزمانين فقط. وأما ما مضى وما لم يات

بجمعهم ومن كماله أن يكون من أجل ممن يسمع بأفعالنا خالدة ا
بمنه تعالى أجل من ذكر الظلم **إذا نام** المرء خرج عن
الدنيا ونسي كل سرور وكل حزن فلو رتب نفسه في
يقظته على ذلك أيضا لسعد السعادة التامة ۝
من أساء إلى أهله وجيرانه فهو أسقطهم. ومن
كافأ من أساء إليه منهم فهو مثلهم. ومن لم يكافئهم
بإساءتهم فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم. ۝

فصل في العلم

لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك
وأن العلماء يحبونك ويكرمونك لكان ذلك سببا إلى وجوب
طلبه فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة. ولو لم
يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبط
نظراءه من الجهال لكان ذلك سببا إلى وجوب الفرار عنه

فكيف بسائر رغم آمله في الدنيا والآخرة. **لو لم** يكن
من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل
عن الوساوس المضنية ومطارح الآمال التي لا تفيد
غير الهم وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس لكان ذلك
أعظم داع إليه فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره
ومن أقلها ما ذكرنا مما يحصل عليه طالب العلم وفي
مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم فتشاغلوا عما
ذكرنا بالشطرنج والنرد والخمر والأغاني وركض
الدواب في طلب الصيد وسائر الفضول التي تعود
بالمضرة في الدنيا والآخرة وأما فائدة فلا فائدة
لو فكر العالم في مرور ساعاته ماذا كفاه العلم
من الذل بتسلط الجهال ومن الهم بمغيب الحقائق عنه
ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من الأمور الخفية

عن غيره لزاد حمد الله عز وجل وغبطة بما لديه
من العلم ورغبة في المزيد منه. **من شغل**
نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادر عليه
كان كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر
وكغارس الشعراء حيث يزكو النخل والزيتون د
نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم
كإطعامك العسل والحلواء من به احتراق وحمى
أو كتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام
الصفراء. **الباخل** بالعلم ألأم من الباخل بالمال لأن
الباخل بالمال أشفق من فناء ما بيده والباخل بالعلم
بخل بما لا يفنى على النفقة ولا يفارقه مع البذل. **من**
مال بطبعه إلى علم ما وإن كان أدنى من غيره فلا
يشغلها بسواه فيكون كغارس النارجيل بالأندلس

وكعقارب الزنبور بالنسبة وكل ذلك لا يجب **أجل**
العلوم ما قربك من خالقك تعالى وما أعانك على
الوصول إلى رضاه **انظر** في المال والحال والصحة
إلى من دونك. وانظر في الدين والعلم والفضائل
إلى من فوقك **العلوم** الغامضة كالدواء القوي
يصلح الأجساد القوية ويهلك الأجساد الضعيفة
وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقل القوي جودة
وتصفيه من كل آفة وتهلك ذا العقل الضعيف
من الغوص على الجنون ما لو غاصه صاحبه على العقل
لكان أحكم من الحسن البصري وأفلاطون الأثيني
وبزرجمهر الفارسي **وقف** العقل عند أنه لا ينفع
إن لم يؤيد بتوفيق في الدين أو بسعد في الدنيا **لا**
تضر بنفسك في أن تجرب بها الآراء الفاسدة لترى

المشير بها فسادها فتهلك فإن ملامة ذي الرأي
الفاسد لك على مخالفته وأنت ناج من المكاره خير
لك من أن يعذرك وتندم كلاكما وأنت قد حصلت
في المكاره **إياك** وأن تسر غيرك بما تسوء به نفسك
فيما لم توجبه عليك شريعة أو فضيلة **وقف** العلم
عند الجهل بصفات الباري عز وجل **لا آفة** أضر على
العلوم وأهلها من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها
فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون ويفسدون
ويقدرون أنهم يصلحون **من أراد** خير الآخرة وحكمة
الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق
كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول
الله صلى الله عليه وسلم وليستعمل أخلاقه وسيره
ما أمكنه أعاننا الله على الاتساء به بمنه آمين

غاظني أهل الجهل مرتين من عمري إحداهما بكلامهم
في ما لا يحسنونه أيام جهلي والثانية بسكوتهم عن
الكلام بحضرتي أيام علمي من فضل العلم والزهد
في الدنيا أنهما لا يؤتيهما الله عز وجل إلا أهلهما
ومستحقهما ومن نقص علو أحوال الدنيا من المال
والصوت أن أكثر ما يقعان في غير أهلهما وفي من
لا يستحقهما من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها
ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل
المواساة والبر والصدق وحسن العشرة والصبر
والوفاء والأمانة والحلم وصفاء الضمائر وصحة المودة
ومن طلب الجاه والمال واللذات لم يساير إلا أمثال
الكلاب الكلبة والثعالب الخلبة ولم يرافق في تلك الطريق
إلا كل عدو المعتقد خبيث الطبيعة منفعة العلم

٧ فهم أبدا ساكتون عما ينفعهم
ناطقون فيما يضرهم وسرني أهل العلم
مرتين من عمري احداها بتعليمي أيام جهلي والثانية بمذاكرتي ججج

في استعمال الفضائل عظيمة وهو أنه يعلم حسن الفضائل
فيأتيها ولو في الندرة، ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو
في الندرة، ويسمع الثناء الحسن فيرغب في مثله والثناء
الرديء فينفر منه فعلى هذه المقدمات يجب أن يكون
للعلم حصة في كل فضيلة وللجهل حصة في كل رذيلة
ولا يأتي الفضائل من لم يتعلم العلم إلا صافي الطبع جدا
فاضل التركيب وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم
السلام لأن الله تعالى علمهم الخير كله دون أن يعلموه
من الناس وقد رأيت من غمار العامة من يجري من
الاعتدال وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم
عالم رائض لنفسه ولكنه قليل جدا ورأيت ممن طالع
العلوم وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام ووصايا
الحكماء وهو لا يتقدمه في خبث السيرة وفساد العلانية

والسيرة شرار الخلق وهذا كثير جدا فعلمت أنها
مواهب وحرمان من الله تعالى ..

فصل في الأخلاق والسير

إحرص على أن توصف بسلامة الجانب وتحفظ من أن
توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك حتى ربما أضر
ذلك بك وربما قتلك وطن نفسك على ما تكره يقل
همك إذا أتاك ولم تستضر بتوطينك أولا وتعظم
سرورك وتتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن
قدرته .. **إذا** تكاثرت **الهموم** سقطت كلها
الغادر يفي للمجدود والوفي يغدر بالمجدود ..
والسعيد كل السعيد في دنياه من لم يضطره الزمان
إلى اختبار الإخوان **لا تفكر** في من يؤذيك فإنك
إن كنت مقبلا فهو هالك وسعدك يكفيك . وإن كنت
مدبرا فكل أحد يؤذيك **طوبى** لمن علم من عيوب
نفسه أكثر مما يعلم الناس منها **الصبر** على الجفاء
ينقسم ثلاثة أقسام **فصبر** عمن يقدر عليك ولا
تقدر عليه **وصبر** عمن تقدر عليه ولا يقدر عليك
وصبر عمن لا تقدر عليه ولا يقدر عليك .. فالأول
ذل ومهانة وليس من الفضائل والرأي لمن خشي ما
هو أشد مما يصبر عليه المتاركة والمباعدة .. والثاني
فضل وبر وهو الحلم على الحقيقة وهو الذي يوصف
به الفضلاء .. والثالث ينقسم قسمين أما إن كان الجفاء
ممن لم يقع منه إلا على سبيل الوهلة ويعلم قبح
ما أتى به ويندم عليه فالصبر عنه فضل وفرض
وهو حلم على الحقيقة وأما من كان لا يدري مقدار
نفسه ويظن لها حقا فيستطيل به ولا يندم على

ما تسلف منه فالصبر عنه ذل للصابر وإفساد للمصبور عليه لأنه يزيد استشراء والمقارضة له سخف والصواب إعلامه بأنه كان ممكنا أن ينتصر منه وأنه إنما تركه استرذالا له فقط وصيانة له عن مراجعته ولا يزاد على ذلك. وأما جفاء السفلة فليس جزاؤه إلا النكال. وخبر، من جالس الناس لم يعدم هما يؤلم نفسه وإثما يندم عليه في معاده، وغيظا ينضج كبده وذلا ينكس همته فما الظن بعد بمن خالطهم وداخلهم والعز والراحة والسرور والسلامة في الانفراد عنهم ولكن اجعلهم كالنار تدفأ بها ولا تخالطها لو لم يكن في مجالسة الناس إلا عيبان لكفيا أحدهما الاسترسال عند الأنس بالأسرار المهلكة القاتلة التي لولا المجالسة لم يبح بها البائح. والثاني مواقعة الغيبة المهلكة في الآخرة، فلا سبيل إلى السلامة من هاتين البليتين إلا بالانفراد عن المجالسة جملة. **لا تحقرن** شيئا من عمل غد أن تحققه بأن تعجله اليوم وإن قل فإن من قليل الأعمال تجتمع كثيرها وربما أعجز أمرها عند ذلك فيبطل الكل. **لا تحقرن** مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث أن تعجله الآن وإن قل فإنه يحط عنك كثيرا لو اجتمع لقذف بك في النار. **الوجع** والفقر والنكبة والخوف لا يحس أذاها إلا من كان فيها ولا يعلمه من كان خارجا عنها. وفساد الرأي والإثم والعار لا يعلم قبحها إلا من كان خارجا عنها وليس يراها من كان داخلا فيها. **الأمن والصحة** والغنى لا يعرف حقها إلا من كان خارجا عنها وليس يعرفه من كان فيها. وجودة الرأي والفضائل وعمل

الآخرة لا يعرف فضلهما إلا من كان من أهلهما ولا يعرفه من لم يكن من أهلهما **أول** من يخرج من الغادر من غدر له الغادر **وأول** من تمقت شمائل الزور من شهد له به **وأول** من تهون الزانية في عين الذي يزني بها وما رأينا شيئا فسد فعاد إلى صحته إلا بعد لأي وكيف بدماغ يتوالى عليه فساد كل ليلة وإن عقلا زين لأصحابه تعجيل إفساده كل ليلة لعقل ينبغي أن يتهم. **الطرب** يبرم والربا يتكرم وكثرة المال ترغب وقلته تفجع. **فمن** يحسن العاقل بتدبيره ولا يجوز أن يستعين الأحمق بتدبيره. **لا شيء** أضر على السلطان من كثرة المتفرغين حواليه فالحازم يشغلهم بما لا يتظلمون فيه وإن لم يفعل شغلوه بما يتظلمون فيه. وأما من أغرى به من الرذائل نفسه. **كثرة** وقوع العين

على الشيء يسهل أمره ويهونه. **التهويل** بلزوم تزيٍّ ما والاعتبار وقلة الانبساط شيئان يجعلان الجهال الذين مكنتهم الدنيا أمام جهلهم. **لا يغتر** العاقل بصداقة حادثة له أيام دولته وكل آخر صديقه يومين. **اجهد** في أن تستعين في أمورك بمن يرى منها لنفسه مثل ما يرى لنفسك ولا تستعن فيها بمن حظه من غيرك كحظه منك. **لا تجب** عن كلام نقل إليك عن قائل حتى تتيقن أنه قاله فإن من نقل إليك كذبا رجع من عندك بحق. **ثق** بالمتدين وإن كان على غير دينك ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك. **من** استخف بحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيء مما تشفق عليه. **وحرمة** المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم

الألوكة

منذ ناشئتي كان اختباري إياه، ولم أجد قط على طول
التجربة به سواه، فأعيتني معرفة العلة في ذلك حتى قررت
أنها طبيعة في البشر من قبح الظلم الإنكار
على من أكثر الإساءة إذا أحسن في الندرة، فمن اشتاح
من عدوه واحد جرت له أعراض كثيرة. **أشبه** ما
رأيت بالدنيا خيال الظل، وهي تماثيل مركبة على
مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو
أخرى. **قال** تعجبي في الموت وفي الرأي صحبت أقواما
غيبة الروح للجسد من صنو الموتة، فلما ماتوا رأيت
بعضهم في النوم ولم أر بعضهم، وقد كنت عاهدت
بعضهم في الحياة على التزاور في المنام بعد الموت إن
أمكن ذلك، فلم أره من النوم بعد أن تقدم إلى الدار
الأخرى، فلا أدري أنسي أم شغل. **غفلة** النفس

ونسيانها ما كانت فيه في دار الابتلاء قبل حلولها
في الجسد كغفلة من وقع في طين غمر عن كل ما عهد
وعرف قبل ذلك. ثم أطلت الفكر أيضا في ذا الأمر فلاح
لي شغب آخر من البيان، وهو أني رأيت النائم إذ تمت
نفسه بالتخلي من حسه، وقوي حسها حتى تشاهد
الغيوب قد نسيت ما كانت فيه قبل نومها نسيانا
تاما البتة على قرب عهدها به، وجرت لها أحوال
أخر وهي في كل ذلك ذاكرة حساسة ملتذة ألمة
ولذة النوم محسوسة في حاله، لأن النائم يلتذ ويحتلم
ويخاف ويحزن في حال نومه، **إنما** ذاك النفس
بالنفس، وأما الجسد فمصروف به مشتغل، وفي دليل ذلك
استعمال المرء برفق جسم حبيبه إذا فارقته نفسه
وأسفه لذهاب النفس وإن كان الجسد حاضرا بين يديه

الألوكة www.alukah.net

لَمْ أَرَ وَلا يُلْبِسُ أَضَرَّ وَلا أَقْبَحَ وَلا أَخْوَفَ مِنْ كَلِمَتَيْنِ
أَلْفَاهُمَا عَلَى الأَلْسِنَةِ، ثُمَّ عَادَةِ إِحْدَاهُمَا اعْتِذَارُ مَنْ أَسَاءَ
بِأَنَّ فُلانًا أَسَاءَ قَبْلَهُ. وَالثَّانِيَةُ اسْتِسْهَالُ الإِنْسَانِ أَنْ
يُسِيءَ الْيَوْمَ لِأَنَّهُ قَدْ أَسَاءَ أَمْسِ أَوْ أَنْ يُسِيءَ فِي وَجْهٍ
مَا لِأَنَّهُ قَدْ أَسَاءَ فِي غَيْرِهِ، فَقَدْ صَارَتْ هَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ
عُذْرًا مُسَهِّلَتَيْنِ لِلشَّرِّ وَمُدْخِلَتَيْنِ لَهُ فِي حَدِّ مَا يُعْرَفُ
وَيُحْمَلُ وَلا يُنْكَرُ. اسْتَعْمِلْ سُوءَ الظَّنِّ حَيْثُ تَقْدِرُ
عَلَى تَوَقِّيهِ خِفَّةً فِي التَّحَفُّظِ وَالتَّأَهُّبِ. وَاسْتَعْمِلْ
حُسْنَ الظَّنِّ حَيْثُ لا طَاقَةَ بِكَ عَلَى التَّحَفُّظِ فَتَرْبَحَ رَاحَةَ
النَّفْسِ. مَحْضُ الْجُودِ وَغَايَتُهُ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ كُلَّهُ
فِي وُجُوهِ الْبِرِّ وَأَفْضَلُهُ الَّذِي إِلَى الْجَارِ الْمُحْتَاجِ وَذِي
الرَّحِمِ الْفَقِيرِ وَذِي النِّعْمَةِ الذَّاهِبَةِ وَالأَخَصِّ فَاقَةً د
وَمَنْعُ الْفَضْلِ مِنْ غَيْرِ الْوُجُوهِ دَاخِلٌ فِي الْبُخْلِ وَعَلَى قَدْرِ

التَّقْصِيرِ وَالتَّوَسُّعِ فِي ذَلِكَ يَكُونُ الْمَدْحُ وَالذَّمُّ وَمَا
وُضِعَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْوُجُوهِ فَهُوَ تَبْذِيرٌ وَهُوَ مَذْمُومٌ
وَمَا تَرَكْتَ مِنْ قُوتِكَ لِمَنْ هُوَ أَشَدُّ حَاجَةً مِنْكَ فَهُوَ
فَضْلٌ وَإِيثَارٌ وَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْجُودِ وَمَا مُنِعَ مِنْ هَذَا
فَهُوَ لا حَمْدٌ وَلا ذَمٌّ وَهُوَ انْتِصَافٌ فَبَذْلُ الْوَاجِبَاتِ
فَرْضٌ وَبَذْلُ مَا فَضَلَ عَنِ الْقُوتِ جُودٌ وَالإِيثَارُ عَلَى
النَّفْسِ مِنَ الْقُوتِ بِمَا لا يُتَمَالَكُ عَلَى عَدَمِهِ فَضْلٌ وَمَنْعُ
الْوَاجِبَاتِ حَرَامٌ. وَمَنْعُ مَا فَضَلَ عَنِ الْقُوتِ بُخْلٌ وَشُحٌّ
وَالْمَنْعُ مِنَ الإِيثَارِ بِبَعْضِ الْقُوتِ عُذْرٌ وَمَنْعُ النَّفْسِ
وَالأَهْلِ الْقُوتَ أَوْ بَعْضَهُ شُحٌّ وَرَذَالَةٌ وَمَعْصِيَةٌ
وَالسَّخَاءُ بِمَا ظَلَمْتَ فِيهِ أَوْ أَخَذْتَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ ظُلْمٌ
مُكَرَّرٌ وَالذَّمُّ جَزَاءُ ذَلِكَ لا الْحَمْدُ لِأَنَّكَ إِنَّمَا تَبْذُلُ
مَالَ غَيْرِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لا مَالَكَ. وَأَعْطَى النَّاسِ مَنْ رَفَعَهُمْ

مما عندها لبستر جوده ولكنه جود وحد الشجاعة
بذل النفس للموت عن الدين والحريم وعن الجار المضطهد
وعن المستجير المظلوم وعن النقيصة ظلما في المال
والعرض وفي سائر سبل الحق وسواء قل من يعارض
أو كثروا والتقصير عن ما ذكرنا جبن وخور
وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق وأحمق من
ذلك من بذلها في المنع عن الحقوق الواجبات
قبله أو قبل غيره وأحمق من هؤلاء قوم
شاهدناهم لا يدرون فيما يبذلون أنفسهم فتارة
يقاتلون زيدا عن عمرو وتارة يقاتلون عمرا عن زيد
ولعل ذلك يكون في يوم واحد فيتعرضون للمهالك
بلا معنى فينقلبون إلى النار أو يفرون إلى العار وقد
أنذر بهؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم

في قوله يأتي على الناس زمان لا يدري القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قتل ح

وحد العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن
الأجسام التي لا تحل لك فما عدا هذا فهو عهر وما
نقص حتى يمسك عما أحل الله تعالى فهو ضعف وعجز
وحد العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه
وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه وحد الكرم أن تعطي
من نفسك الحق طائعا وتتجافى عن حقك لغيرك قادرا
وهو فضل أيضا وكل جود كرم وفضل وليس كل كرم
وفضل جودا فالفضل أعم والجود أخص إذ الحلم
فضل وليس جودا والفضل فرض زدت عليه نافلة
إهمال ساعة يفسد رياضة سنة خطأ الواحد
خير في تدبير الأمور من صواب الجماعة التي لا يجمعها
واحد لأن خطأ الواحد في ذلك يستدرك وصواب
الجماعة يضري على استدامة الإهمال وفي ذلك الهلاك

نوادر العتبة لا يغفر كانت فيّ عيوب فلم أزل
بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله
عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في
الأخلاق وفي آداب النفس أعاني مداواتها حتى أعان
الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنّه وتمام
العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق هو
الإقرار بها ليتعظ بذلك متعظ يوما إن شاء الله
فمنها كلف في الرضى وإفراط في الغضب فلم أزل أداوي
ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام
والفعل والتخبط وامتنعت مما لا يحل من الانتصار وتحملت
من ذلك ثقلا شديدا وصبرت على مضض مؤلم كان ربما
أمرضني وأعجزني ذلك في الرضى وكأني سامحت نفسي
في ذلك لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤم ومنها دعابة

غالبة فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب
الممازح وسامحت نفسي فيها إذ رأيت تركها من الانغلاق
ومضاهيا للكبر ومنها عجب شديد فناظر عقلي
نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله ولم يبق له
والحمد لله أثر بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة
واستعمال التواضع ومنها حركات كانت تولدها
غرارة الصبا وضعف الإغضاء فقصرت نفسي على تركها
فذهبت ومنها محبة في بعد الصيت والغلبة فالذي
وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما
لا يحل في الديانة والله المستعان على الباقي مع أن ظهور
النفس الغضبية إذا كانت منقادة للناطقة فضل
وخلق محمود ومنها إفراط في الأنفة بغضت إلي إنكاح
الحرم جملة بكل وجه وصعبت ذلك في طبعي وكأني

توقفت عن مغالبة هذا الافراط الذي أعرف قبحه
لعوارض اعترضت علي والله المستعان ومنها عداوتان
قد سترهما الله تعالى وأعان على مقاومتهما وأعان بلطفه
عليهما فذهبت أحدهما البتة ولله الحمد وكأن السعادة
كانت موكلة بي فإذا لاح منه طالع قصدت طمسه
وطاولني الثاني منهما فكان إذا ثارت منه مردة
نفضت عروقه فيكاد ي[illegible]ر ثم يسر الله تعالى قمعه
بضروب من لطفه تعالى حتى أخلد ومنها حقد مفرط
قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره وغلبته
على إظهار جميع نتائجه وأما قطعه البتة فلم أقدر
عليه وأعجزني معه أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة
أبدا وأما سوء الظن فيعده قوم عيبا على الإطلاق
وليس كذلك إلا إذا أدى صاحبه إلى ما لا يحل في الديانة

أو إلى ما يقبح في المعاملة وإلا فهو حزم والحزم فضيلة
وأما الذي يعيبني به جهال أعدائي من أني لا أبالي
فيما أعتقده حقا عن مخالفة من خالفته ولو أنهم اعتقده ح
جميع من على ظهر الأرض وأني لا أبالي موافقة
أهل بلادي في كثير من زيهم الذي قد تعودوه لغير
معنى فهذه الخصلة من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها عندي
ولعمري لو لم تكن في وأعوذ بالله لكانت من
أعظم متمنياتي وطلباتي عند خالقي عز وجل وأنا
أوصي بذلك كل من تبلغه كلامي فلن ينفعه اتباعه
الناس في الباطل والفضول إذ أسخط ربه تعالى وغبن
عقله أو آلم نفسه وجسده وتكلف مؤونة لا فائدة
فيها وقد عابني أيضا بعض من غاب عن معرفة الحقائق
أني لا ألم لنيل من نالني وأني أتعرى عن الأكثر من نفسي

إلى إخواني فلا أمتعض لهم إذا قيل منهم بحضرتي وأنا
أقول إن من وصفني بذلك فقد أجمل الكلام ولم
يعبني والكلام إذا أجمل اندرج فيه تحسين
القبيح وتقبيح الحسن ألا ترى لو أن قائلا قال إن فلانا
يطا أخته لفحش ذلك ولاستقبحه كل سامع له
حتى إذا فسر فقال هي أخته في الإسلام ظهر فحش هذا
الإجمال وقبحه وأما أنا فإني إن قلت لا آلم لنيل
من نال مني لم أصدق فالألم في ذا الأمر مطبوع مجبول
في البشر كلهم لكني قد قصدت نفسي على أن لا أظهر
لذلك غضبا ولا تخبطا ولا تشنعا فإن تيسر لي الإمساك
عن المعارضة جملة فإن أنا ثبت لذلك فهو الذي أعتمد
عليه بحول الله تعالى وقوته وإن بادرني الأمر لم أعارض
إلا بكلام مؤلم غير فاحش أتحرى فيه الصدق ولا

أخرجه مخرج الغضب ولا التجهيل وبالجملة فإني كاره
لمثل إلا لضرورة داعية إليه مما أرجو به قمع المستثير
في النيل مني أو قمع الناقل إلي إذ أكثر الناس محبون
لإسماع المكروه من يسمعونه إياه على ألسنة غيرهم
ولا شيء أقمع لهم من مثل الوجه فإنهم ينكفون به
عن نقل المكاره على ألسنة الناس إلى الناس وهذا
شيء لا يعين إلا إفساد الضمائر وإن قال القائل فقط
ثم تعرض هذا فإن القائل مني لا يخلو من أحد وجهين
لا ثالث لهما إما أن يكون كاذبا وإما أن يكون
صادقا فإن كان كاذبا فلقد عجل الله لي الانتصار
منه على لسان نفسه بأن حصل في جملة الكذب وبأن
نبه على فضلي بأن نسب إلي ما أنا منه بريء العرض
وما يعلم أكثر السامعين له كذبه إما في وقته ذلك

أميل

وإما بغير تحفظ عما قال وإن كان صاغيا فإنه لا يخلو
من أحد ثلاثة أوجه: إما أن أكون شاركته في أمر
استرحت إليه استراحة المرء إلى من يقر فيه ثقة
وأمانة فهذا أسوأ الناس حالة وكفى به سقوطا
وضعة وإما أن يكون عابني بما يظن أنه عيب
وليس عيبا فقد كفاه جهله شناءة وهو المعيب لا
من عابه وإما أن يكون عابني بعيب هو فيّ على
الحقيقة وعلم مني نقصا أطلق به لسانه فإن كان
صادقا فنفسي أحق بأن ألوم منه وأنا حقيق أجدر
بالغضب على نفسي مني على من عابني بالحق وأما
أمر إخواني فإني لست أمسك عن الامتعاض لهم
لكني أمتعض امتعاضا رفيقا لا أزيد فيه على أن أبرّم
القائل منهم بحضرتي وأخجله بتبرمي وبعتبي رد ويخجل

وبنقص وغم الذكر فأن أتلهى به عن ذكر غيري من نال من
الناس وأن ينظر المرء في أمر نفسه والتهمم بإصلاحها
أولى به من تتبع عثرات الناس وبأن أتذكر فضل صديقي
فأبكيه على افتقاده على ذكر العيب دون ذكر
الفضيلة وأن أقول له إنه لا يرضى بالرذيلة فهو
أولى بالكرم منك فلا ترض لنفسك بهذا أو نحو هذا
من القول وأما أن أماري القائل فأحميه وأهيج طباعه
وأستثير غضبه فينبعث منه في صديقي أضعاف
ما أكره وأنا الجاني جنايتين على صديقي والمعرض
له لقبيح السب وتكراره فيه وإسماعه من لم يسمعه
والإغراء به وربما كنت أيضا في ذلك جانيا على
نفسي ما لا ينبغي لصديقي أن يرضاه لي من إسماعي
الجفاء والمكروه وأنا لا أريد من صديقي أن يذب عني

بأكثر من الوجه الذي جرى منه فإن تعقبه الذي إلى أن
يُساء النائل مني حتى يولد بين الذي أن يتضاعف النيل
وأن يتعدى أيضا إليه بعض المواجهة وربما إلى أن يؤول
وأقوى منه على قدر سعة النائل ومنزلته من البذاء وربما
كانت منازعة بالأيدي فأنا مستنقص لفعله فمن
ذا الذي دار عليه متظلم منه غير شاك له لكني ألومه
على ما الذي أسر اللوم وبالله تعالى التوفيق. ومن
أيضا نقص من تعسف الأمور دون تحقيق لأني أضيع
مالي وهذه جملة بيانها أني لا أضيع منه إلا ما
كان في حفظه نقص من دين أو إخلاق عرض أو إتعاب
نفسي فإني أرى الذي أحفظ من هذه الثلاثة وإن قل
أجل في العوض مما من مالي ولو أنه كل ما ذرت عليه الشمس

يضيع

ووجدت أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه

على العدل وحبه وعلى الحق وإيثاره فما استعنت على
قمع هذه الطوالع الفاسدة وعلى كل خير في الدين
والدنيا إلا بما في قوتي من ذلك ولا حول ولا قوة إلا
بالله تعالى **وأما** من طبع على الجور واستسهاله وعلى
الظلم واستخفافه فلييأس من أن يصلح نفسه أو يقوم
طباعه أبدا وليعلم أنه لا يفلح في دين ولا في خلق
محمود **وأما** الزهو والحسد والكذب والخيانة فلم
أعرفها بطبعي قط وكأني لا حمد لي في تركها لمنافرة
جبلتي إياها والحمد لله رب العالمين **من عيب** حب
الذكر أنه يحبط الأعمال إذا أحب عاملها أن يذكر
بها فكاد يكون شركا لأنه يعمل لغير الله عز وجل
وهو يطمس الفضائل لأن صاحبه لا يكاد يفعل
الخير حبا للخير لكن ليذكر به. **أبلغ** في ذمه

من مدحك بما ليس فيك لأنه نبه على نقصك وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك لأنه نبه على فضلك ولقد انتصر لك من نفسه بذلك وباستشرافه إلى الإنكار واللائمة **لو** علم الناقص نقصه لكان كاملا

لا يخلو مخلوق من عيب فالسعيد من قلت عيوبه ودقت **أكثر** ما يكون ما لم يظن والحزم هو التأهب لما يظن فسبحان مرتب ذلك ليري الإنسان عجزه وافتقاره إلى خالقه تعالى ه

فصل في الإخوان والصداقة والنصيحة

استبقاك من عاتبك وزهد فيك من استهان بسيئاتك **العتاب** للصديق كالسبك للسبيكة فإما تصفو وإما تطير **من** طوى من إخوانك سره الذي يعنيك دونك أخون لك ممن أفشى سرك لأن من أفشى

سرك فإنما خانك فقط ومن طوى سره دونك منهم فقد خانك واستخونك **لا** ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والخزي **لا** تزهد فيمن يرغب فيك فإنه باب من أبواب الظلم وترك معارضة الإحسان وهذا قبيح **من** امتحن بأن يخالط الناس فلا يلقي بوهمه كله إلى من صحب ولا يبن منه إلا على أنه عدو مناصب ولا يصبح كل غداة إلا وهو مترقب من غدر إخوانه وسوء معاملتهم مثل ما يترقب من العدو المكاشف فإن سلم من ذلك فلله الحمد وإن كانت الأخرى ألفي متأهبا ولم يمت هما **وأنا** أعلمك أن بعض من خالصني المودة وأصفاني إياها غاية الصفاء في حال الشدة والرخاء والسعة والضيق والغضب والرضى تغير علي أقبح تغير بعد اثني عشر عاما متصلة في

غاية الصفاء لسبب الطبع حتى ما قرأته قط أنه يوجد
مثله في أحد من الناس وما صلح لي بعضهما ولقد أممني
ء الدسين كثيرة هما شرا. ولكن لا تستعمل مع
منها سوء المعاملة فتلحق بذوي الشرارة من الناس وأهل
الخبث منهم ولكن هاهنا طريقة عسرة المسلك شاقة
المتكلف يحتاج سالكها إلى أن يكون أهدى من القطا
وأحذر من العقعق حتى يفارق الناس راحلا إلى ربه
تعالى وهذه الطريق هي طريق الفوز في الدين والدنيا
يحرز صاحبها صفاء نيات ذوي النفوس السليمة
والعقول الصحيحة البراءة من المكر والخديعة ويحوز
فضائل الأبرار وسجايا الفضلاء ويحصل مع ذلك
على سلامة الدهاة وتخلص الخبثاء ذوي النكراء
والدهاء ومنه أن تكتم سر كل من وثق بك وأن لا تفشي

إلى أحد من إخوانك ولا من غيرهم من سرك ما يمكنك
طيه بوجه من الوجوه ولو أنه أخص الناس بك وأن تفي
لجميع من ائتمنك ولا تأمن أحدا على شيء من أمرك
تشفق عليه إلا عن ضرورة لا بد منها فأتمن حينئذ
واجتهد وعلى الله تعالى الكفاية وابذل فضل مالك
وجاهك لكل من سألك أو لم يسألك ولكل من احتاج
إليك وأمكنك نفعه وإن لم يعتمدك بالرغبة ولا تشعر
نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز
وجل ولا تبن إلا على أن من أحسنت إليه أول مضر
بك وساع عليك فإن ذوي التراكيب الخبيثة يبغضون
لشدة الحسد من أحسن إليهم إذا رأوه في أعلى من
أحوالهم وعامل كل أحد في الأنس أحسن معاملة
وأضمن السلو عنه إن فات ببعض الآفات التي تأتي مع

مع مرور الأيام والليالي فتعيش سالما مستريحا
لا تنصح على شرط القبول ولا تشفع على شرط
الإجابة ولا تهب على شرط الإثابة لكن على سبيل
استعمال الفضل وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة
وبذل المعروف. حد الصداقة الذي يدور على طرفي
محدوده هو أن يكون المرء يسوءه ما يسوء الآخر
ويسره ما يسره، فما سفل عن هذا فليس صديقا ومن
حمل هذه الصفة فهو صديق وقد يكون المرء صديقا
لمن ليس صديقه وأما الذي يدخل في باب الإضافة
فهو المتصادق فهذا يقتضي فعلا من فاعلين إنه قد
يحب الإنسان من يبغضه وأكثر ذلك في الآباء مع
الأبناء وفي الإخوة مع إخوتهم وبين الأزواج وفيمن
صارت محبته عشقا وليس كل صديق ناصحا لكن كل

ناصح صديق فيما نصح فيه وحد النصيحة هو أن يسوء
المرء ما ضر الآخر ساء ذلك الآخر أو لم يسؤه وأن يسره
ما نفعه سر الآخر أو ساءه، فهذا شرط في النصيحة زائد
على شروط الصداقة وأقصى غايات الصداقة التي لا
مزيد فيها من شاركك بنفسه وماله لغير علة توجب
ذلك وآثرك على من سواك. ولولا أني شاهدت مظفرا
ومباركا صاحبي بلنسية لقلت إن هذا الخلق معدوم
في زماننا ولكني ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع
أسباب الصداقة مع تأتي الأحوال الموجبة للفرقة
غيرهما ليس شيء من الفضائل أشبه بالرذائل من
الاستكثار من الإخوان والأصدقاء فإن ذلك فضيلة
تامة متركبة لأنهم لا يكتسبون إلا بالحلم والجود
والصبر والوفاء والاستضلاع والمشاركة والعفة

وحسن الوفاء وتعليم العلم وبكل حالة محمودة
ولسنا نعني الشاكرية والأتباع أتباع الحرمة فأولئك
لصوص الإخوان وحتف الأصدقاء والذين يظن أنهم
أولياء وليسوا كذلك وقد قيل إلا انحرافهم عند
انحراف الدنيا ولا نعني أيضا المصاحبين لبعض
الأطماع ولا المتنادمين على الخمر والمجتمعين
على المعاصي والقبائح والمتابعين على النيل من أعراض
الناس والأخذ في الفضول وما لا فائدة فيه فليس
هؤلاء أصدقاء وقد قيل إلا أن بعضهم ينال من بعض
وينحرف عنه عند فقد تلك الرذائل التي جمعتهم
وإنما نعني إخوان الصفاء لغير معنى إلا لله عز
وجل إما للتعاون على بعض الفضائل الخيرية وإما
لنفس المحبة المجردة فقط ولكن إذا حصلت عن

حصيتا
ع

الاستكثار منهم وصعوبة الحال في إرضائهم والغرار
في مشاركتهم وما يلزم من الحقوق لهم عند نكبة
تعرض لهم فإن قصرت فيهم أو أسلمتهم لُمتَ وذُممتَ
وإن وفيت أضررت بنفسك وربما هلكت ومثل الذي
لا يرضى العاقل بسواه إنما تنشب في الصداقة وإنما
يعرض
تعكرت في البر بما لهم وفيهم من موت أو فراق أو غربة
من يعز منهم كاد السرور لا يفي بالحزن الممض من
أجلهم. ولنذكر في الرذائل أشبه بالفضائل من جهة
المزح وقد قيل إلا أنه في الوجه سخف ممن يمزح
وقد جاء في الأثر في المزاح ما جاء إلا أنه قد يشفع
به في الإفطار عن الشر والتنفير من الخير وفي أن يرغب
في ذلك الخلق المرذول ولقد صح عندي أن بعض
النافسين للدنيا لقي رجلا من أهل الأدب للناس

ولمن قُلِن بعض الأعمال الخفية فقابله بالثناء عليه
وبأنه فمن سمع شيئا مستغيظا ووصفه بالجميل والرفق
منتشرا فكان ذلك سببا إلى إقطار ذلك الفاسق عن
كثير من شره **بعض أنواع النميمة** يشكل تمييزه
من النميمة لأن من سمع إنسانا يذم آخر كاتما له
أو يكيده كاتما له فكتم ذلك عن المقول فيه والكتم
كان الكلام لذلك كاتما من هو ثم إن أعلمه بذلك
على وجهه كان نماما فقد ولد على النمام والكاتم ما لم
يبلغه استنقاذه بعد من الأمر فيكون كاتما له ولينتبه
من يحاول أن ينتصر من الظالم بأكثر من قدر ظلمه فالمتظلم
من هذا الباب صعب إلا على ذوي العقول والواجب للعاقل
في مثل هذا أن يحفظ المقول فيه من القائل فيعظه دون
أن يبلغه ما قال لئلا يقع في الإثم بسبب ذلك فيهلك ۝

وأما في الكبير فالواجب أن يحفظه من الوجه الذي
يكاد منه بالطلب ما يقدر في الكتمان على الكائن وأبلغ
ما يقدر في تحفيظ الكبير ولا يزيد على هذا شيئا **وأما**
النميمة فهي التبليغ لما سمع مما لا ضرر فيه على المبلغ
إليه وبالله التوفيق **النصيحة** مرتان فالأولى فرض
وديانة والثانية تنبيه وتذكير وأما الثالثة فتوبيخ
وتقريع وليس وراء ذلك إلا الركل واللطام وربما
أشد من ذلك من البغي والأذى اللهم إلا في معاني
الديانة فواجب على المرء ترداد النصح فيها رضي
المنصوح أو سخط تأذى الناصح بذلك أو لم يتأذ
إذا نصحت فانصح سرا لا جهرا وبتعريض لا تصريح
إلا لمن لا يفهم فلا بد من التصريح له ولا تنصح على شرط
القبول منك فإن تعديت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح

الألوكة

والطالب لما عنده وملحٍ لا مؤدٍّ حقَّ أمانةٍ وأخوّةٍ وليس
هذا حكمَ العقل ولا حكمَ الصداقة لكن حكمُ الأمير مع
رعيّته والسيّد مع عبده **لا تكلّف** صديقك إلا مثل
ما تبذل له من نفسك فإن طلبت أكثر فأنت ظالمٌ
ولا تكتسب إلا على شرط الفقر **ولا** تتولَّ إلا على
شرط العزلة وإلا فأنت مضرٌّ بنفسك خبيث السيرة
مسامحة أهل الاستيثار والاستغنام والتغافل لهم
ليس مروءةً ولا فضيلةً بل هو مهانةٌ وضعفٌ وتضريةٌ
لهم على التمادي على هذا الخلق المذموم وتغبيطٌ لهم به
وعونٌ على هذا الفعل السوء وإنما تكون المسامحة مروءةً
لأهل الإنصاف المبادرين إلى الإنصاف والإيثار
فهؤلاء فرضٌ على أهل الفضل أن يعاملوهم بمثل ذلك
لا سيما إن كانت حاجتهم أمسَّ وضرورتهم أشدَّ من

أردتَ قضاء حاجته بعد أن سألك إياها أو أردتَ قـ
ابتداءه بقضائها فلا تعمل له إلا ما يريد هو لا ما تريد
أنت وإلا فأمسك فإن تعدّيت هذا كنت مسيئًا لا
محسنًا ومستحقًّا للوم منه ومن غيره لا للشكر ومقتضيًا
للعداوة لا للصداقة **لا** تنقل إلى صديقك ما يؤلم
نفسه ولا ينتفع بمعرفته فهذا فعل الأرذال ولا تكتمه
ما يستضرّ بجهله فهذا فعل أهل الشر **لا** يسرّك أن تمدح
بما ليس فيك بل ليعظم غمّك بذلك لأنه نقصك ينبّه
الناس عليه ويسمعهم إياه وسخريةٌ منك وهزءٌ بك
ولا يرضى بهذا إلا أحمق ضعيف العقل **ولا** تأسَ إن ذُممت
بما ليس فيك بل افرح به فإنه فضلك ينبّه الناس عليه
ولكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح وسواءٌ
مُدحت به أو لم تُمدح واحزن إذا كان فيك ما تستحق

به الذم وسواء ذممت به أو لم تذمم من سمع قايلا
يقول في امرأة صديقه قول سوء فلا يخبره بذلك أصلا
لا سيما إن كان القايل عيابة وقاعا في الناس سليط
اللسان أو دافع مغرم عن نفسه يريد أن يكثر أمثاله عو
في الناس وهذا كثير موجود وبالجملة فلا يعرف
الإنسان إلا بالحق وقول مثل القايل لا يدري أحق هو
أم باطل إلا أنه في الريبة عظيم فإن سمع القول ن جماعة
مستفيضا وعلم أن أصل ذلك القول شايع وليس راجعا
إلى قول إنسان واحد أو اطلع على حقيقة إلا أنه لا
يقدر أن يوقف صديقه على ما وقف هو عليه فليخبره
بذلك بينه وبينه في رفق وليقل له النسا كثير وحصن
منزلك وثقف أهلك واجتنب أمرا كذا وتحفظ من
وجه كذا فإن قبل المنصوح وتحرز فحظ نفسه أصاب

وإن رآه لا يتحفظ ولا يبالي أفسد ولا يعاونه بكلمة
ويمادي على صداقته إياه فليس يعني إلا بصدقه في قوله بما
يوجب قطيعته فإن اطلع على حقيقة وقدر أن يوقف
صديقه على مثل ما وقف عليه هو من الحقيقة فعرض
عليه أن يخبره بذلك وأن يوقفه على الجلية فإن غير
فذلك وإن رآه لا يغير فليجتنب صحبته فإنه رجل لا
خير فيه ولا تقية : وكذا حال رجل مستتر في منزل المرء
دليل سوء لا يحتاج إلى غيره وكذا حال المرأة في منزل
رجل على سبيل التستر مثل ذلك أيضا وكذلك دليل أكثر
من هذا فمن سخف وواجب أن يجتنب مثل هذه المرأة ::
ومراقبتها على كل حال وممسكها لا يبعد عن الريبة ۞
الناس في أخلاقهم على سبع مراتب فطايفة
تمدح في الوجه وتذم في المغيب وهذه صفة أهل

شبكة الألوكة www.alukah.net

الفقهاء من العابدين ومن خلق فاش في الناس غالب عليهم وطائفة ترنم في المشهد والمغيب ومن صفة أهل السلاطة والوقاحة من العابدين وطائفة تمزح في الوجه والغيب ومن صفة أهل اللهو والطمع وطائفة ترنم في المشهد وتمزح في المغيب ومن صفة أهل الشغب والنواكة وأما أهل الفضل فيمسكون عن المزح والرنم في المشاهد ويثنون بالخير في المغيب أو يمسكون عن الرنم وأما العابدون القراء من الفقهاء والفتية فيمسكون في المشهد ويترنمون في المغيب وأما أهل السلامة فيمسكون عن المزح وعن الرنم في المشهد والمغيب ومن كل مذم من الصفات قد سامرنا وبلوناه إذا نصحت بعض الخلاء بكلام لين ولا تنسبن شيئا من خشونته إلى غيرك فتكون

تماما فإن خشنت كلامك في النصيحة من الإزراء والتعيير ونحو قال الله تعالى فقولا له قولا لينا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنفروا وإن نصحت بشيء ط القبول منك فأنت ظالم ولعلك مخطئ في وجه نصحك فتكون مطالبا بقبول خطئك وترك الصواب لكل شيء بآيته ولقد انتفعت بجهل أهل الجهل منفعة عظيمة وهي أنه توقد طبعي واحتدم خاطري وحمي وكمن وتهيج نشاطي وكان ذلك سببا إلى تواليف لي عظيمة المنفعة ولولا استنفارهم ساكني واقتداحهم كامني لما انبعثت لتلك التواليف

فصل في أنواع المحبة

وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفي أنواعها المحبة كلها جنس واحد ورسمها أنها الرغبة في المحبوب

وكراهيته لمفارقته والرغبة في المقارضة منه بالمحبة
وإنما فرق الناس أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض
فيها وإنما اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع
وتزايدها وضعفها أو انحسامها فتكون المحبة لله عز
وجل وفيه وللاتفاق على بعض المطالب، وللأنس
وللقرابة، وللصديق وللسلطان، ولذات الفراش وللمحسن
وللمأمول، وللمعشوق فهذا كله جنس واحد اختلفت
أنواعه كما وصفت لك على قدر الطمع فيما ينال من
المحبوب فلذلك اختلفت وجوه المحبة وقد رأينا من
مات أسفا على ولده كما يموت العاشق أسفا على معشوقه
وبلغنا عن من شهق من خوف الله تعالى ومحبته فمات
ونجد الملك يغار على سلطانه وعلى صديقه كما يغار
على ذات فراشه وكما يغار العاشق على معشوقه ۝

فأدنى أطماع المحب ممن يحب الحظوة منه والرفعة
لديه والزلفة عنده إذا لم يطمع في أكثر وهذه
غاية أطماع المحبين لله عز وجل ثم يزيد الطمع في
المجالسة ثم في المحادثة والموازرة وهذه أطماع المرء في
سلطانه وصديقه وذوي رحمه **وأقصى** أطماع
المحب ممن يحب المخالطة بالأعضاء إذا رجاه ولذلك
نجد المحب المفرط المحبة في ذات فراشه يرغب في
مجامعتها على مثنات شتى وفي أماكن مختلفة ليستكثر
من الاتصال ويدخل في هذا الباب الملامسة بالجسد
والتقبيل وقد يقع بعض هذا الطمع في الأب في ولده
فيتعدى إلى التقبيل والتعنيق وكل ما ذكرنا إنما هو
على قدر الطمع فإذا انحسم الطمع عن شيء ما لعدم
الأسباب الموجبة له مالت النفس إلى ما تطمع فيه ۝

ونجد المقر بالرؤية لله عز وجل تشتاق نفسه إليها أعظم النزوع ونفسه لا تقنع بدرجة دونها لأنه يطمع فيها **ونجد** المنكر لها لا تجد نفسه إلى ذلك ولا يتمناه أصلا لأنه لا يطمع فيه ونجد من يقتصر على الرضى والخلود في دار الكرامة فقط لأنه لا تطمع نفسه في أكثر **ونجد** المستحل لنكاح الغرائب لا يقنع منهن بما يقنع المحرم لذلك ولا تقف محبته حيث تقف محبة من لا يطمع في ذلك ونجد من يستحل نكاح ابنته وابنة أخيه كالمجوس واليهود لا يقف من محبتهما حيث يقف المسلم بل نجدهما يتعشقان الابنة وابنة الأخ كتعشق المسلم من يطمع في مخالطته بالجماع ولا نجد مسلما يبلغ ذلك فيهما ولو أنهما أجمل من الشمس وكان هو أغير الناس

وأغيرهم فإن وجود ذلك في الندرة فلا تجد إلا من فاسد الدين فمن زال عنه ذلك الداعي فانفسح له الأمل وانفسح له باب الطمع. ولا يؤمن من المسلم أن تفرط محبته لابنة عمه لجمالها حتى تصير عشقا وحتى تتجاوز محبته لها محبته لابنته وابنة أخيه وإن كانتا أجمل منها لأنه يطمع من الوصول إلى ابنة عمه حيث لا يطمع من الوصول إلى ابنته وابنة أخيه **ونجد** النصراني آمنا من ذلك من نفسه في ابنة عمه أيضا لأنه لا يطمع منها في ذلك ولا يأمن ذلك من نفسه في أخته من الرضاعة لأنه طامع فيها في شريعته فلاح بهذا عيانا تاما ما ذكرناه من أن المحبة كلها جنس واحد لكنها تختلف أنواعها على قدر اختلاف الأغراض فيها وإلا فطبائع البشر كلهم واحدة إلا أن العادة والاعتقاد

الرئيس قائداً كما مرّ ولسنا نقول إنّ الطمع له تأثير
في هذا الفن وحده لكنّا نقول إنّ الطمع سبب إلى
كل همٍّ وحزنٍ في الأموال والأحوال فإنّا نجد الإنسان
بموت جاره وخاله وصديقه وابن عمّته وعمّه لأمّه وابن
أخيه لأمّه وجدّه أبي أمّه وابن بنته فإنه لا يطمع له
في ماله أن يقع عنه الهمّ لفوته عن يده وإن جلّ خطره
وعظم مقداره فلا سبيل إلى أن يدركه الاهتمام لشيء منه
بباله حتى إذا كان له عصبة على بعدٍ أو مولى على بعدٍ
وحدث له الطمع في ماله حدث له من الهم والأسف
والغيظ والفكرة بفوت اليسير منه عن يده أمرٌ عظيم
وهكذا في الأحوال فنجد الإنسان من أهل الطبقة
المتأخرة لا يهتمّ لانقياد غيره أمور مملكته ووزارته
ولا لتقريب غيره وإبعاده حتى إذا حدث له طمع

في هذه المرتبة حدث له من الهمّ والفكر والغيظ أمرٌ
ربما قاده إلى تلف نفسه وتلف أبنائه وإخوانه فالطمع
أصلٌ لكل همٍّ ولكل غمٍّ وهو خلقُ سوءٍ ذميمٌ وضدّه
نزاهة النفس وهي صفةٌ فاضلةٌ مركّبةٌ من النجدة
والجود والعدل والفهم لأنّه من جمع قلّة القابرة في
استعمال ضدّهما فاستعملهما وكانت فيه نجدةٌ أنجدت له
عزّة نفسه فنزّهته وكانت فيه طبيعة عدلٍ حبّبت
إليه القناعة وقلّة الطمع فإذا نزاهة النفس مركّبة
من هذه الصفات فالطمع الذي هو ضدّها مركّبٌ من الصفات
المضادّة لهذه الصفات الأربع ومعنى الجبن والشحّ والجور
والجهل والرغبة طمعٌ مشتقٌّ من أثرٍ مستعمل ولولا
الطمع لأمن أحدٌ لأحدٍ. وأخبرني أبو بكر بن أبي العباس
قال كنت عثمن بن عامر على باب داره فأستمه يا عثمن

فصول من هذا الباب

لا تطمع من امتحن بفقد من يكره كمن امتحن بفقد من يحب ولا مرزوق **إذا** دعا المحب في السلو فإجابته مضمونة ودعوته مجابة **أفجع** بمن عنده يفجع به من عنده **السعيد** في المحبة هو من ابتلي بمن يقدر أن يلقي عليه ثقله ولا يلحقه في مواصلته تبعة من الله عز وجل ولا ملامة من الناس وصلاح ثم البلا أن يتوافقا في المحبة ويحرمه أن يكونا خاليين من الملال فإنه خلق سوء مبغض وتمامه نوم الأيام عنهما من انتفاع بعضهما ببعض وأتى بذلك إلا في الجنة وأما ضمانه ببعض ولستر الأخ فيهما فمتى تم أن الفراق وإلا فلو جعل ذلك كله في الدنيا لم تكن من العجايب ولقطع الهرم دون استيعاب اللذة **إذا** أن تعجب الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة **الغيرة** خلق فاضل متركب من

النجدة والعدل لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره وأن يتعدى غيره إلى حرمته ومن كانت النجدة طبعا له حدثت فيه عزة ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام **أخبرني** بعض من صحبنا في الزمن عن نفسه أنه ما عرف الغيرة قط حتى ابتلي بالمحبة فغار وكان هذا المخبر فاسد الطبع خبيث التركيب إلا أنه كان من أهل الفهم والجود **مدارج** المحبة خمس أولها الاستحسان وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه حسنة أو يستحسن أخلاقه وهذا يدخل في باب التصادق ثم الإعجاب به وهو رغبة الناظر في المنظور إليه وفي قربه ثم الألفة وهي الوحشة إليه متى غاب ثم الكلف وهو غلبة شغل البال به وهذا النوع يسمى في باب الغزل بالعشق ثم الشغف وهو امتناع النوم والأكل والشرب إلا اليسير

من ذلك وربما أدى عدم ذلك إلى المرض أو إلى التوسوس أو إلى الموت وليس وراء ذلك منزلة في تناهي المحبة أصلا.

فصل في أنواع صباحة الصور

وقد سئلت عن تحقيق الكلام فيها

الحلاوة رقة المحاسن ولطف الحركات وخفة الإشارات وقبول النفس لأعراض الصورة وإن لم تكن هنالك صفات ظاهرة. **القوام** جمال كل صفة على حدتها ورب جميل الصفات على انفراد كل صفة منها بارد الطلعة غير مليح ولا حسن ولا رائع ولا حلو. **الروعة** بهاء الأعضاء الظاهرة مع جمال فيها وهي أيضا الفراهة والعتق. **الحسن** هو شيء ليس له في اللغة اسم يعبر به عنه غيره ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه وهو برد مكسو على الوجه وإشراق

يستميل القلوب نحوه فتجتمع الآراء على استحسانه وإن لم تكن هنالك صفات جميلة وكأنه شيء في نفس المرء تجده نفس الرائي وهو أعلى مراتب الصباحة لأن كل من رآه راقه واستحسنه وقبله حتى إذا تأملت الصفات أفرادا لم تر طائلا ثم تختلف الأهواء بعد هذا فمن مفضل للروعة ومن مفضل للحلاوة وما وجدنا أحدا يفضل القوام المنفرد. **الملاحة** اجتماع شيء فشيء مما ذكرنا.

المرئي

فصل في ما يتعامل الناس به وفي الأخلاق

التلون المذموم هو التنقل من زي متكلف لا معنى له إلى زي آخر مثله في التكلف وفي أنه لا معنى له ومن حال لا معنى إلى حال لا معنى لها بلا سبب يوجب ذلك وأما من استعمل من الزي ما أمكنه مما به إليه حاجة وترك التزين مما لا يحتاج إليه فهذا عين من عيون العقل والحكمة

لها

شبكة الألوكة www.alukah.net

كبير وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
القدوة في كل خير والذي أثنى الله تعالى على خلقه
والذي جمع الله تعالى فيه أشتات الفضائل بتمامها وأبعده
عن كل نقص يعود المريض مع أصحابه راجلا في أقصى المدينة
بلا خف ولا نعل ولا قلنسوة ولا عمامة ويلبس الشعر
إذا حضره وقد يلبس الوشي من الحبرات إذا حضره
ولا يتكلف ما لا يحتاج إليه ويستغني بما وجد عما لا يجد
ومرة يمشي راجلا حافيا ومرة يلبس الخف ويركب البغلة
الرائعة الشهباء ومرة يركب الفرس عريا ومرة يركب
الناقة ومرة حمارا ويردف عليه بعض أصحابه ومرة
يأكل التمر دون خبز والخبز يابسا ومرة يأكل العناق
المشوية والبطيخ بالرطب والحلواء يأخذ القوت ويترك
الفضل ويترك ما لا يحتاج إليه ولا يتكلف فوق مقدار

الحاجة ولا يغضب لنفسه ولا يترك الغضب لربه عز
وجل **الثبات** الذي هو صحة العقل والثبات
الذي هو اللجاج مشتبهان اشتباها لا يفرق بينهما إلا
عارف بكيفية الأخلاق والفرق بينهما أن اللجاج هو ما
كان على الباطل أو ما فعله الفاعل نصرا لما نشب فيه وقد
لاح له فساده أو لم يلح له صوابه ولا فساده وهذا مذموم
وضده الإنصاف **وأما** الثبات الذي هو صحة العقل فإنما
يكون على الحق أو على ما اعتقده المرء حقا ما لم يلح له
باطله وهذا محمود وضده الاضطراب وإنما يلام بعض
من لأنه ضيع تدبر ما ثبت عليه وترك البحث عما
التزم أحق هو أم باطل **حد العقل** استعمال الطاعات
والفضائل وهذا الحد ينطوي فيه اجتناب المعاصي والرذائل
وقد نص الله تعالى في غير موضع من كتابه على أن من عصاه

شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يعقل قال تعالى حكاية عن قوم قالوا لو كنا نسمع أو
نعقل ما كنا في أصحاب السعير. ثم قال تعالى مصدقا لهم
فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير **وحد الحمق**
استعمال المعاصي والرذائل وأما التعدي وقذف الحجارة
والتخليط في القول فإنما هو جنون ومرار هائج **وأما**
الحمق فهو ضد العقل وهما ما بينا آنفا ولا واسطة
بين الحمق والعقل إلا السخف **وحد السخف** هو
العمل والقول بما لا يحتاج إليه في دين ولا دنيا ولا حميد
خلق مما ليس معصية ولا طاعة ولا عونا عليهما ولا
فضيلة ولا رذيلة مؤذية ولكنه من هذر القول وفضول
العمل فعلى قدر الاستكثار من هاتين الأمرين أو التقلل
منهما يستحق المرء اسم السخف وقد يسخف المرء في
قصة ويعقل في أخرى ويحمق في ثالثة **وضد**

الجنون تمييز الأشياء ووجود القوة على التصرف في
المعارف والصناعات وهذا الذي تسميه الأوائل النطق
ولا واسطة بينهما **وأما** إحكام أمر الدنيا والتودد
إلى الناس بما وافقهم وصلحت عليه حال المتودد من باطل
أو غيره أو عيب أو ما عداه والتحيل في إنماء المال وبعد
الصوت وتسبيب الجاه بكل ما أمكن من معصية ورذيلة
فليس عقلا ولقد كان الذين صرح فيهم الله تعالى بأنهم
لا يعقلون وأخبر تعالى بأنهم لا يعقلون ساسة
لدنياهم مثمرين لأموالهم مدارين لملوكهم حافظين لرياستهم
لكن هذا الخلق يسمى الدهاء وضده الغفلة والسلامة
وأما إذا كان السعي في ما ذكرنا تصاونا وأنفة فهو
يسمى الحزم وضده المضيع له التضييع **وأما** الوقار
فهو وضع الكلام موضعه والتوسط في تدبير المعيشة

ومسايرة الناس بالمسالمة وحسن الأخلاق وتسمى الرزانة وهي
ضد الشغب **الوفاء** مركب من العدل والجود والنجدة
لأن الوفي رأى من الجور ألا يقارض من وثق به أو من أحسن
إليه بعدل في ذلك ورأى أن يسمح بعاجل يقتضيه له عدم
الوفاء من الحظ فجاد في ذلك ورأى أن يتحمل لما يتوقع
من عاقبة الوفاء فشجع في ذلك **أصول الفضائل**
كلها أربعة عنها تتركب كل فضيلة وهي العدل والعفة
والنجدة والجود **وأصول الرذائل** كلها أربعة
عنها تتركب كل رذيلة وهي أضداد التي ذكرنا وهي
الجور والجهل والجبن والشح **الأمانة** والعفة نوعان
من أنواع العدل والجود **النزاهة** في النفس فضيلة
تتركب من النجدة والجود وكذلك الصبر **الحلم**
نوع مفرد من أنواع النجدة **القناعة** فضيلة مركبة

من الجود والعدل **الحرص** متولد عن الطمع والطمع
متولد عن الحسد والحسد متولد عن الرغبة والرغبة متولدة
عن الجور والشح والجهل **ويتولد** من الحرص رذائل
عظيمة منها الذل والسرقة والغصب والزنى والغش
والعشق والهم بالفقر والمسألة لما بأيدي الناس فيتولد
فيما بين الحرص والطمع لأن الحرص هو الطمع ما استدرك
في النفس من الطمع **المداراة** فضيلة متركبة من الحلم
والصبر **الصدق** مركب من العدل والنجدة **من جاء**
إليك بباطل رجع من عندك بحق وكذلك أن من نقل
إليك كذبا عن إنسان ثم لك ضبطه فاجتنبه فرجع عنك
بحق متحفظ من هذا ولا تجب إلا عن كلام صح عندك
عن قائله **لا شيء** أقبح من الكذب وما ظنك بعيب
يكون الكفر نوعا من أنواعه فكل كفر كذب والكذب

جنس والكفر نوع تحته والكذب متولد من الجور والجبن والجهل لأن الجبن مولد لمهانة النفس والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة.

رأيت الناس في كلامهم الذي هو فصل بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات ينقسمون أقساما ثلاثة أحدها من لا يبالي فيما أنفق كلامه فيتكلم بكل ما يسبق إلى لسانه غير محقق نصر حق ولا إنكار باطل وهذا هو الأغلب في الناس

والثاني أن يتكلم ناصرا لما وقع في نفسه أنه حق ودافعا لما توهم أنه باطل غير محقق لطلب الحقيقة لكن لجاجا فيما التزم وهذا كثير وهو دون الأول

والثالث واضع الكلام في موضعه وهذا أعز من الكبريت الأحمر.

لقد طال هم من غاظه الحق

إثنان عظمت راحتهما أحدهما في غاية الحمد والآخر

في غاية الذم وهما مطرح الدنيا ومطرح الحياء.

لو لم يكن من الزهد في الدنيا إلا أن كل إنسان في العالم فإنه كل ليلة إذا نام نسي كل ما يشفق عليه في يقظته وكل ما يشفق منه وكل ما يسعى إليه في تلك الحال لا يذكر ولدا ولا أهلا ولا جاها ولا خمولا ولا ولاية ولا عزلة ولا فقرا ولا غنى ولا مصيبة وكفى بهذا واعظا لمن عقل.

من عجيب تدبير الله عز وجل للعالم أن كل شيء اشتدت الحاجة إليه كان ذلك أهون له وتأمل ذلك في الماء فما فوقه. وكل شيء اشتد الغنى عنه كان ذلك أعز له وتأمل ذلك في الياقوت الأحمر فما دونه.

الناس في ما يعانونه كالماشي في الفلا كلما قطع أرضا بدت له أرضون وكلما قضى المرء سببا حدثت له أسباب.

ضروب من قال إن

العاقل مغترب في الدنيا وصدق من قال أنه فيها مستريح
فأما تغربه فيما يرى من انتشار الباطل وغلبة دوله
وخمول أهله وبليته من إظهار الحق وأما راحته فمن
كل ما يهتم به سائر الناس من فضول الدنيا فإياك
وموافقة الجليس ومساعدة أهل زمانك في ما يضرك
في أخراك أو في دنياك وإن قل فإنك لا تستفيد من ذلك
إلا الندامة حيث لا ينفعك الندم ولن يحمدك من
ساعدته بل يشمت وأقل ما في ذلك وهو المضمون
أنه لا يبالي بسوء عاقبتك وفساد منقلبك وإياك
ومخالفة الجليس ومعارضة أهل زمانك في ما لا يضرك
في دنياك ولا في أخراك وإن قل فإنك تستفيد من ذلك
الأذى والمنافرة والعداوة وربما أدى ذلك إلى
المطالبة والضرر العظيم دون منفعة أصلا إن لم

يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ولم
تكن مندوحة عن منافرة الحق أو منافرة الخلق فأغضب
الناس ونافرهم ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق الائتساء
بالنبي صلى الله عليه وسلم في وعظ أهل الجهل والمعاصي
والرذائل واجب فمن وعظ بالجفاء والاكفهرار فقد
أخطأ وتعدى طريقته صلى الله عليه وسلم وصار في
أكثر الأمر مغريا للموعوظ بالتمادي على أمره لجاجا وحردا
ومغايظة للواعظ الجافي فيكون في وعظه مسيئا لا
محسنا ومن وعظ ببشر وتبسم ولين وكأنه مشير
برأي ومخبر عن غير الموعوظ بما يستقبح من الموعوظ
فذلك أبلغ وأنجع في الموعظة فإن لم يتقبل فلينتقل
إلى الموعظة بالتحشيم وفي الخلاء فإن لم يقبل ففي حضرة
من يستحيي منه الموعوظ فهذا أدب الله تعالى في أمره

بالقول والفعل وكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه
أحدا
بالموعظة لكن كان يقول أقوام يفعلون كذا وقد أثنى
عليه السلام على الرفق وأمر بالتيسير ونهى عن التنفير
وكان يتخول بالموعظة خوف الملل وقال تعالى ولو
كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وأما
الغلظة والشدة فإنما تجب في حد من حدود الله تعالى
فلا ترجع بذلك الغاية على إقامة الحد خاصة ومما
ينفع في الوعظ أيضا الثناء بحضرة المسيء على من فعل
خلاف فعله فيميل داعيه إلى عمل الخير وما أعلم
لحب المدح فضلا إلا أمرا واحدا وهو أن يغتر به
من صنع الثناء ولهذا يجب أن تورخ الفضائل والرذائل
لينبعث سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ويرغب في
الحسن المنقول عن من تقدمه ويتعظ بما سلف ە

فتأملت كل ما دون السماء وكانت فيه ولكن فوجدت
كل شيء فيه من حي وغير حي من صنعه إن فوق
أن يخلع غيره من الأنواع كتقلباته وتلبسه صفاته
فترى العاقل يود لو كان الناس فضلاء وترى الناقص يود
لو كان الناس نقصاء وترى كل من له كرسيا يحض عليه
أمرا
يقول وأنا أفعل كذا وكل ذي مذهب يود لو كان
الناس موافقين له وترى النار في الغضا إذا فرق
بعضها على بعض أحاله إلى نوعيته وترى في الكرم
تركيب الشجر وفي تغيير النبات والشجر بالماء ورطوبة
الأرض وإحالتهما إلى نوعيتهما فسبحان مخترع
العالم ومدبره لا إله إلا هو ومن عجيب قدرة الله
تعالى كثرة الخلق ثم لا ترى أحدا يشبه آخر شبها
لا يكون بينهما فرق وقد سألت من طال عمره وبلغ

التمائز فيما أمثل رأى الصور فيما خلا مشبهة لبعضه
شبها واحدا فقال لي لا بل لكل صورة فرقها ومكرا
كل ما في العالم يعرف ذلك من تدبر الآلات
وجميع الأجسام المركبات وكما ذكر رحمه علينا
فإنه يميز ما بينهما ويعرف بعضها من بعض ويعرف
فيما تعرفها النفس ولا يقدر أحد يعبر عنها بلسانه
فسبحان العزيز الحكيم الذي لا تتناهى مقدوراته ه
ومن عجائب الدنيا قوم غلبت عليهم آمال فاسدة لا
يحظون منها إلا على إتعاب النفس عاجلا ثم الإثم
آجلا كمن يتمنى غلاء الأقوات التي في غلائها هلاك الناس
وكمن يتمنى بعض الأمور التي فيها الضرر لغيره وإن كانت
له فيها منفعة فإن تأميله ما يؤمل من ذلك لا يعجل له
عاجلا قبل وقته ولا يأتيه من ذلك إلا ما سبق في علم الله

[illegible]

تعالى بكونه ولو تمنى الخير والرخاء لتعجل الأجر والراحة
والفضيلة ولم يتعب نفسه طرفة عين مما فوقها فاعجبوا
لفساد هذه الأخلاق بلا منفعة ه

فصل في مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة

من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه فإن أعجب بفضائله
فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنية فإن خفيت عليه
عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلم أنه مصيبة
الأبد وأنه أتم الناس نقصا وأعظمهم عيوبا وأضعفهم
تمييزا وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل ولا عيب أشد
من هذين لأن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبها
وسعى في قمعها والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه
إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته وإما لأنه
يقدر أن عيوبه خصال وهذا أشد عيب في الأرض ه

أنها

الألوكة

وفي الناس كثير يفخرون بالزينة والنباهة والشهرة والعلم
فيعجب بما يأتي من التحوس له ويعوقه على سنن المحاذين
واعلم يقينا أنه لا يسلم إنسي من نقص حاشى الأنبياء
صلوات الله عليهم فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط
وصار من السخف والضعة والرذالة والخسة وضعف
التمييز والعقل وقلة الفهم بحيث لا يتخلف عنه متخلف
من الأرذال وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة فليتدارك
نفسه بالبحث عن عيوبه والاشتغال بذلك عن الإعجاب بها
وعن عيوب غيره التي لا تضره لا في الدنيا ولا في الآخرة
وما أدري لسماع عيوب الناس خصلة سوى الاتعاظ بما
يسمع المرء منها فيجتنبها ويسعى في إزالة ما فيه منها
بحول الله تعالى وقوته **وأما** النطق بعيوب الناس
فعيب كبير لا يسوغ أصلا والواجب اجتنابه إلا في نصيحة

من يتوقع عليه الأذى بمداخلة المعيب أو على سبيل تبكيت
المعجب فقط في وجهه لا خلف ظهره ثم يقول للمعجب ارجع
إلى نفسك فإذا ميزت عيوبها فقد داويت عجبك ولا تمثل
بين نفسك وبين من هو أكثر عيوبا منها فتستسهل
الرذائل وتكون مقلدا لأهل الشر وقد ذم تقليد أهل الخير
فكيف تقليد أهل الشر لكن مثل بين نفسك وبين من هو
أفضل منك فحينئذ يتلف عجبك وتفيق من هذا الداء
القبيح الذي يولد عليك الاستخفاف بالناس وفيهم بلا
شك من هو خير منك فإذا استخففت بهم بغير حق استخفوا
بك بحق لأن الله تعالى يقول وجزاء سيئة سيئة مثلها
فتولد على نفسك أن تكون أهلا للاستخفاف بل على
الحقيقة مع مقت الله عز وجل وطمس ما فيك من فضيلة
فإن أعجبت بعقلك ففكر في كل فكرة سوء تمر بخاطرك

الألوكة

وفي أضاليل الأماني الطائفة بك فإنك تعلم نقص عقلك حينئذ. وإن أعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها ولا تنسها وفي كل رأي قدرته صوابا فخرج بخلاف تقديرك وأصاب غيرك وأخطأت أنت فإنك إن فعلت ذلك فأقل أحوالك أن توازن سقوط رأيك بصوابه فتخرج لا لك ولا عليك والأغلب أن خطأك أكثر من صوابك وهكذا كل أحد من الناس بعد النبيين صلوات الله عليهم. وإن أعجبت بعملك فتفكر في معاصيك وفي تقصيرك وفي معاشك ووجوهه فوالله لتجدن من ذلك ما يغلب على خيرك ويعفي على حسناتك فليطل همك حينئذ وأبدل من العجب تنقصا لنفسك. وإن أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة مجردة وهبك إياها ربك تعالى فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ما قد علمت وحفظت

ولقد أخبرني عبد الملك بن طريف وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الأحوال وصحة البحث أنه كان ذا حظ من الحفظ عظيم لا يكاد يمر على سمعه شيء يحتاج إلى استعادته وأنه ركب البحر فمر به فيه هول شديد أنساه أكثر ما كان يحفظه وأخل بقوة حفظه إخلالا شديدا لم يعاوده ذلك الذكاء بعد. **وأنا** أصابتني علة فأفقت منها وقد ذهب ما كنت أحفظ إلا ما لا قدر له فما عاودته إلا بعد أعوام

واعلم أن كثيرا من أهل الحرص على العلم يجدون في القراءة والإكباب على الدرس والطلب ثم لا يرزقون منه حظا فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه فصح أنه موهبة من الله تعالى فأي مكان للعجب ها هنا ما هذا إلا موضع تواضع وشكر لله تعالى

شبكة الألوكة www.alukah.net

واشتراكه من نعمه واستغنائه من سلبها. ثم تفكر أيضا
في أن ما خفي عنك وجهلته من أنواع العلوم ثم من أصناف
علمك الذي تختص به والذي أعجبت بنفاذك فيه أكثر مما تعلم من
ذلك فاجعل مكان العجب استنقاصا لنفسك واستقصارا
لها فهو أولى وتفكر في من كان أعلم منك تجدهم كثيرا
فلتهن نفسك عندك حينئذ وتفكر في إخلالك بعلمك وأنك
لا تعمل بما علمت منه فعلمك عليك حجة حينئذ ولقد كان أسلم
لك لو لم تكن عالما واعلم أن الجاهل حينئذ أعقل منك وأسلم
حالا وأعذر فليسقط عجبك بالكلية ثم لعل علمك الذي
تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التي لا كبير خطة
فيها كالشعر وما جرى مجراه فانظر حينئذ إلى من علمه
أجل من علمك في مراتب الدنيا والآخرة فتهون نفسك
عليك وإن أعجبت فتفكر فيمن هو أشجع منك ثم انظر

بشجاعتك

في تلك النجدة التي منحك الله تعالى فيم صرفتها فإن كنت صرفتها
في معصية فأنت أحمق لأنك بذلت نفسك فيما ليس بثمن لها
وإن كنت صرفتها في طاعة فقد أفسدتها بعجبك ثم تفكر
في زوالها عنك بالشيخ وأنك إن عشت فستصير في عدد
العيال وكالصبي ضعفا على أني ما رأيت العجب في طائفة
أقل منه في أهل الشجاعة فاستدل بذلك على نزاهة
أنفسهم ورفعتها وعلوها وإن أعجبت بجاهك في دنياك
فتفكر في مخالفيك وأندادك ونظرائك ولعلهم أخساء وضعفاء
سقاط واعلم أنهم أمثالك فيما أنت فيه ولعلهم ممن يستحيا
من التشبه بهم لفرط رذالتهم وخساستهم في أنفسهم وأخلاقهم
ومنابتهم فاستهن بكل منزلة شاركك فيها من ذكرت لك
وإن كنت مالك الأرض كلها ولا مخالف عليك وهذا بعيد
جدا في الإمكان فما نعلم أحدا ملك معمور الأرض كله على قلته

وصون مساحته بالاضافة الى غامرها فكيف اذا اضيف
الى العالم المحيط فتفكر في ما قال ابن الرشيد وقدمه عـا
السماك
بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه فقال له يا امير المومنين
فلو منعت هذه الشربة بكم كنت ترضى ان تبتاعها فقال له
الرشيد بملكي كله قال له يا امير المومنين فلو منعت خروجها
منك بكم كنت ترضى تفتدي من ذالك قال بملكي كله فقال
يا امير المومنين ان تعجبك بملك لا يساوي بولة ولا شربة ماء
وصدق ابن السماك رحمه الله **وان كنت** ملك المسلمين كلهم
فاعلم ان ملك السودان وهو اسود عريان مكشوف العورة
كامل بملكه اوسع من ملكك. وان قلت انا اخذته بحق ولغيري
ما اخذته بحق اذا استعملت فيه رذيلة العجب واذا لم تعقل
فيه فاستحي من حالة بمقتضى حالة رذالة لا حالة يجب العجب
بها **وان اعجبت** بمالك فمن اسوا ثمرات العجب فانظر

في كل سافلة خسيس هو اغنى منك ولا تغبطه بحالة تعرفها
فيما من ذكرته واعلم ان عجبك بالمال حمق لانه احجار
لا ينتفع بها الا بان تخرجها عن ملكك بنفعها في وجهها
فقط والمال انما غاد ورائح وربما زال عنك ورأيته بعينه
في يد غيرك ولعل ذالك يكون في يد عدوك فالعجب بمثل هذا
سخف والثقة به غرور وضعف **وان اعجبت** بحسنك
ففكر في ما يؤول عليك مما نستحيي نحن من اثباته وتستحيي
انت منه اذا ذهب عنك بدخولك في السن وفي ما ذكرنا
كفاية **وان اعجبت** بمدح اخوانك لك ففكر في ذم
اعدائك اياك فحينئذ ينجلي عنك العجب وان لم يكن لك
عدو فلا خير فيك ولا منزلة اسقط من منزلة من لا عدو
له فليست الا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد
عليها عافانا الله. فان استحقرت عيوبك ففكر فيما

لو طمحت إلى الناس وتمثّل أخلاقهم عليها فحينئذ تخجل
وتعرف قدر نفسك إن كانت لك مسكة من تمييز واعلم
بأنك إن تعلّمت كيفية تركيب الطبائع وتولد الأخلاق
من امتزاج عناصرها المحمولة في النفس فستقف من غير شك
ووقوفا يقينا على أن هذه أمور لا فضل لك فيها وأنها منح من
الله تعالى لو منحها غيرك لكان مثلك وأنك لو وكلت
إلى نفسك لعجزت وهلكت فاجعل بدل عجبك بها شكرا
للواهب لك إياها وإشفاقا من زوالها فقد تتغير الأخلاق
الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم وارحم
من منع ما منحت ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم بالتعاطي
على واهبها تعالى وبأن تجعل لنفسك فيما وهب خصلة أو حقا
فتعتقد أنك استغنيت عن عصمته فتهلك عاجلا وآجلا
ولقد أصابتني علة شديدة ولدت علي ربوا في الطحال

شديدا فولد ذلك علي من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر
والنزق أمرا حاسبت نفسي فيه إذ أنكرت تبدل خلقي واشتد
عجبي من مفارقتي لطبعي وصح عندي أن الطحال موضع الفرح
إذا فسد تولد ضده وإن أعجبت بنسبك فهذه أسوأ من كل
ما ذكرنا لأن هذا الذي أعجبت به لا فائدة له أصلا في دنيا
ولا أخرى وانظر هل يدفع عنك جوعة أو يستر لك عورة
أو ينفعك في آخرتك ثم انظر إلى من يساهمك في نسبك وربما
فيما هو أعلى منه ممن نالته ولادة الأنبياء عليهم السلام
ثم ولادة الخلفاء ثم ولادة الفضلاء من الصحابة والعلماء ثم ولادة
ملوك العجم من الأكاسرة والقياصرة ثم ولادة التبابعة وسائر
ملوك الإسلام فتأمل غبراتهم ومن يدلي بمثل ما تدلي به من ذلك
تجد أكثرهم أمثال الكلاب خساسة وتلفهم في غاية السقوط
والرذالة والتبذل والتحلي بالصفات المذمومة فلا تغتبط

بمنزلة هم فيها نظراؤك أو دونك أو فوقك ثم لعل الآباء الذين
تفخر بهم كانوا فساقا وشربة خمور ولاطة ومتعيثين ونوكى
أطلقت الأيام أيديهم بالظلم والجور فأنتجوا ظلما وآثارا
قبيحة يبقى بقاء الدهر عارهم على الأيام ويعظم إثمهم والندم
عليها يوم الحساب فإن كان ذلك فاعلم أن الذي أعجبت به من
ذلك داخل في العيب والخزي والعار والشنار لا في الإعجاب
فإن أعجبت بولادة الفضلاء إياك فما أخلى يدك من فضلهم
إن لم تكن أنت فاضلا وما أقل غناءهم عنك في الدنيا والآخرة
إن لم تكن محسنا والناس كلهم ولد آدم الذي خلقه الله تعالى بيده
وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته ولكن ما أقل نفعه لهم
وفيهم كل معيب وكل فاسق وكل كافر وإذا فكر
العاقل في أن فضل آبائه لا يقربه من ربه تعالى ولا يكسبه
وجاهة لم يحزها هو بسعيه أو بفضله في نفسه ولا مالا

فأي معنى للإعجاب بما لا منفعة فيه وهل المعجب بذلك إلا كالمعجب
بمال جاره وبجاه غيره وبفرس لغيره سبق كان على رأسه لجامه
وكما تقول العامة في أمثالها كالخصي يزهى بذكر أبيه **فإن**
تعدى بك العجب إلى الامتداح فقد تضاعف سقوطك لأنه
قد عجز عقلك عن مقاومة ما فيك من العجب هذا إن امتدحت
بحق فكيف إن امتدحت بالكذب وقد كان ابن نوح وأبو
إبراهيم وأبو لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم أقرب
الناس من أفضل خلق الله تعالى ومن الشرف كله في اتباعهم
فما انتفعوا بذلك وقد كان فيمن ولد لغير رشدة من كان في الغاية
في رياسة الدنيا كزياد وأبي مسلم ومن كان نهاية في الفضل
على الحقيقة كبعض من نجله عن ذكره في مثل هذا الفصل ممن
يتقرب إلى الله تعالى بمحبته والاقتداء بحميد آثاره **وإن**
أعجبت بقوة جسمك فتفكر في أن البغل والحمار والثور

أقوى منه وأحمل للأثقال وإن عجبت بخفتك فاعلم أن الذئب والأرنب يفوقانك في هذا الباب فمن العجب العجيب إعجاب ناطق بخصلة يفوقه فيها غير الناطق **واعلم** أن من قدر في نفسه عجبا أو ظن لها على سائر الناس فضلا فلينظر إلى صبره عند ما يدهمه من هم أو نكبة أو وجع أو دمل أو مصيبة فإن رأى نفسه قليلة الصبر فليعلم أن جميع أهل البلاء من المجذومين وغيرهم الصابرين أفضل منه على تأخر طبقتهم في التمييز وإن رأى نفسه صابرة فليعلم أنه لم يأت بشيء يسبق فيه على من ذكرنا بل هو في ذلك إما متأخر عنهم وإما مساو لهم ولا مزيد ∴ ثم لينظر إلى سيرته وعدله وجوده فيما خوله الله تعالى من نعمة أو مال أو خول أو دابة أو أهل أو جاه فإن وجد نفسه مقصرة فيما يلزمه من الشكر لواهبه تعالى ووجدها خائفة في العدل فليعلم

خاينة

أن أهل العدل والشكر والسيرة الحسنة من المخولين أكثر مما هو فيه أفضل منه وإن رأى نفسه ملتزمة للعدل فالعادل بعيد عن العجب البتة لعلمه بمقادير الأشياء ومقادير الأخلاق والتزامه التوسط الذي هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين فإن أعجب فلم يعدل بل قد مال إلى جنبة الإفراط المذمومة **واعلم** أن التعسف وسوء الملكة لمن خولك الله تعالى أمره من رقيق أو رعية يدلان على خساسة النفس ودناءة الهمة وضعف العقل لأن العاقل الرفيع النفس العالي الهمة إنما يغالب أكفاءه في القوة ونظراءه في المنعة وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط في الطبع ورذالة في النفس والخلق وعجز ومهانة ∴ ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جرذ أو بقتل برغوث أو بفرك قملة وحسبك بهذا ضعة وخساسة **واعلم**

أن رياضة النفس أصعب من رياضة الأسد لأن الأسد إذا
سجنت في البيوت التي تتخذ لها الملوك أمن شرها والنفس
وإن سجنت لم يؤمن شرها **والعجب** أصل يتفرع منه
التيه والزهو والكبر والنخوة والتعاظم وهي أسماء
واقعة على معان متقاربة ولذلك صعب الفرق بينها على
أكثر الناس وقد يكون العجب بفضيلة في المعجب ظاهرة
فمن معجب بعلمه فيتفيهق ويتعلى على الناس ومن معجب
بعمله فيترفع ويتعاظم ومن معجب برأيه فيزهو على
غيره ومن معجب بنسبه فيتيه ومن معجب بجاهه
وعلو حاله فيتكبر ويتجبر **وأقل** مراتب العجب أن تراه
يتوقر عن الضحك في مواضع الضحك وعن خفة الحركات
وعن الكلام إلا فيما لا بد منه من أموره تيها وعيب هذا
أقل من عيب غيره ولو فعل هذه الأفاعيل على سبيل

على

الاقتصار على الواجبات وترك الفضول لكان محمودا فضلا وموجبا
لحمدهم ولكنهم إنما يفعلون ذلك احتقارا للناس وإعجابا
بأنفسهم فيحصل لهم بذلك استخفاف والذم وإنما الأعمال
بالنيات ولكل امرئ ما نوى حتى إذا زاد الأمر ولم يكن ثم
تمييز يحجب عن توطئة العجب حقه ولا عقل يحجزه خرج
من الظهور إلى الاستخفاف بالناس واحتقارهم بالكلام
وفي المعاملة حتى إذا زاد ذلك وضعف التمييز في العقل
ترقى ذلك إلى الاستطالة على الناس بالأذى باللسان واليد
والتحكم والظلم والطغيان واقتضاء الطاعة لنفسه
والخضوع لها إن أمكنه ذلك فإن لم يقدر على ذلك
استراح بلسانه واقتصر على ذم الناس والاستهزاء بهم
وقد يكون العجب لغير معنى ولغير فضيلة في المعجب وهذا
من عجيب ما يقع في هذا الباب وهو شيء تسميه عامتنا

التمييز وكثيرا ما نراه في النساء، وفي من عقله قريب من
عقولهن من الرجال وهو عجب من ليس فيه خصلة أصلا
لا علم ولا شجاعة ولا علو حال ولا نسب رفيع ولا مال
يطغيه وهو مع ذلك يعلم أنه صفر من كل ذلك لأن هذه أمور
لا يغلط فيها من لا يعرف بالحجارة، وإنما يغلط فيها
من له أدنى حظ منها فربما يتوهم إن كان ضعيف العقل
أنه قد بلغ الغاية القصوى منها كمن له حظ من علم
فظن أنه عالم كامل أو كمن له نسب معرق في ظلمة وتجبرهم
لم يكونوا أنذالا ومعايب في ظلمهم فتجبره لو كان ابن فرعون
ذي الأوتاد ما زاد على إعجابه الذي هو فيه أو له شيء من
فروسية فهو يقدر أنه قد هزم عليا وأسر الزبير وقتل
خالدا أو له شيء من جاه رذل فهو لا يرى الإسكندر على حال
أو يكون قويا على أن يكتسب ما يتقوت من ضربه فهو بل يفضل

عن قوته فلو أخبر بغرنيق الشمس لم يزد على ما هو فيه
ولئن يكثر العجب من هؤلاء وإن كانوا عجبا لكن ممن
لا حظ له من علم أصلا ولا نسب البتة ولا مال ولا جاه
ولا نجدة بل تراه في كفالة غيره ومهتضما لكل من له أدنى
كافة وهو يعلم أنه خال من كل ذلك وأنه لا حظ له في شيء
منه ثم هو مع ذلك في حالة المزهو التياه، ولقد تسببت
إلى سؤال بعضهم في رفق ولين عن سبب علو نفسه واحتقاره
للناس فما وجدت عنده مزيدا على أن قال لي أنا حر لست
عبد أحد فقلت له أكثر من تراه يشاركك في هذه الفضيلة
فهم أحرار مثلك إلا قوما من العبيد هم أطول يدا منك
وأمرهم نافذ عليك وعلى كثير من الأحرار فلم أجد عنده
زيادة فرجعت إلى تفتيش أحواله ومراعاتها ففكرت
في ذلك سنين لا أعلم السبب الباعث لهم على هذا

العجب الذي لا سبب له فلم أر أخبث مما تنطوي عليه
نفوسهم مما يبدو من أحوالهم ومن مراميهم في كلامهم
ما اشتمل أمرهم على أنهم يقدرون أن عندهم فضل عقل
وتمييز ورأي أصيل لو أمكنتهم الأيام من تصريفه لوجدوا فيه
متسعا ولأداروا الممالك الرفيعة ولبان فضلهم على
سائر الناس ولو ملكوا مالا لأحسنوا تصريفه فمن هاهنا
تسرب إليهم الهم وسرى العجب فيهم وهذا مكان
للكلام فيه شعب عجيب وعارضة معترضة وذلك أنه
ليس شيء من الفضائل كلما كان المرء منه أغزر قوي ظنه
في أنه قد استولى عليه واستمر ذهنه في أنه قد كمل فيه
إلا العقل والتمييز حتى إنك تجد المجنون المطبق والسكران
الطافح يسخران بالصحيح والجاهل الناقص يهزأ بالحكماء والجاهل
العلماء والصبيان الصغار يتهكمون بالكهول والسفهاء

العابثين يستحمقون بالعقلاء المنطوين وضعفة النساء
يستنقصون عقول أكابر الرجال وآراءهم وبالجملة فكلما
نقص العقل توهم صاحبه أنه أوفر الناس عقلا وأكمل
ما كان تمييزا ولا يعرض هذا في سائر الفضائل فإن العارين
منها جملة يدرون أنهم عارون منها وإنما يدخل الغلط على
من له أدنى حظ منها وإن قل فإنه يتوهم حينئذ إن
كان ضعيف التمييز أنه عالي الدرجة فيه ودواء من
من ذكرنا الفقر والخمول فلا دواء أنجع لهم منه ولا
فإنهم وضررهم على الناس عظيم جدا ولا تجدهم إلا
عيابين للناس وقاعين في الأعراض مستهزئين بالجميع
مجانبين للحقائق مكبين على الفضول وربما كانوا مع ذلك
متعرضين للمشاتمة والمهارشة وربما قصدوا إلى الملاطمة
والمضاربة عند أدنى سبب يعرض لهم وقد يكون

العجب مكننا في المرء حتى إذا حصل على أن نجا، أو مال
ظهر ذلك عليه وعجز عقله عن قمعه وستره، ومن
ظريف ما رأيت في بعض أهل الضعف أن منهم من يغلبه
ما يظهر من عجبه ولين الضعيف وامرأته حتى يصفها بالعقل
في المحافل وحتى إنه يقول هي أعقل مني وأنا أتبرك
بوصيتها. وأما مزحه إياها بالجمال والحسن والعافية
وكثير في أهل الضعف جدا حتى إنه لو كان خاطبا لها
ما زاد على ما يقول في ترغيب السامع لو وصفه لها فيما
ولا يكون هذا إلا في ضعيف العقل عار من العجب بنفسه
إياك والامتداح فإن كل من يسمعك لا يصدقك وإن
كنت صادقا بل يجعل ما سمع منك من ذلك في أول معايبك.
وإياك ومزح أحد في وجهه فإنه فعل أهل الملق
وصنعة النعوس. وإياك وذم أحد لا يحضرك ولا

في معيبه ولك في إصلاح نفسك شغل. وإياك والتفاخر
فإنك لا تحصل من ذلك إلا على تكذيبك أو احتقار من يسمعك
ولا منفعة لك من ذلك أصلا إلا كفر نعمة ربك تعالى
أو شكواه إلى من لا يرحمك. وإياك ووصف نفسك بالنبل
فإنك لا تزيد على إطماع السامعين فيما عندك ولا تزد
على شكر الله تعالى ونم كثر فقرك إليه وغناك عمن
دونه فإن هذا يكسبك الجلالة والراحة من الطمع فيما
عندك. **العاقل** هو من لا يفارقها أوجبه تمييز
من سبب للناس الطمع فيما عنده لم يحط إلا على
أن ينزل له لوم ولا عابة لهذا أو يمنعهم فيلومه ويعادونه
وإذا أردت أن تعطي أحدا شيئا فليكن ذلك منك قبل
أن يسألك فهو أكرم وأنزه، وأوجب للحمد من بديع
ما يقع في الخسر فقول الخاسر إذا سمع إنسانا يعرب

في علم ما هذا سبيله بارد لم يتقدم إليه ولا قاله قبله أحد
فإن سمع من يقبح ما قد قاله غيره قال هذا بارد وقد قيل
قبله ومن طائفة سوء قد ذهبت أن تعتمد للقعود
على طريق العلم يصدون الناس عنها ليكثر نظراؤهم من
الجهال. **الحكيم** لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع
بل يظنه خبيثًا مثله وقد شاهدت أقوامًا ذوي طبائع
رديئة وقد تصور في أنفسهم الخبيثة أن الناس كلهم على
مثل طبائعهم لا يصدقون أصلاً بأن أحدًا هو سالم من
رذائلهم بوجه من الوجوه وهذا أسوأ ما يكون من فساد
الطبع والبعد عن الفضل والخير ومن هذه صفته لا ترجى
له معافاة أبدًا وبالله التوفيق **العدل** حصن يلجأ
إليه كل خائف وذلك أنك ترى الظالم وغير الظالم إذا
رأى من يريد ظلمه دعا إلى العدل وأنكر الظلم حينئذ

وذمه ولا ترى أحدًا يذم العدل فمن كان العدل في طبعه
فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين **الاستهانة** نوع
من أنواع الخيانة إذ قد يخونك من لا يستهين بك ومن
استهان بك فقد خانك الإنصاف وكل مستهين خائن
وليس كل خائن مستهينًا. الاستهانة بالمتاع دليل على
الاستهانة برب المتاع **حالان** يحسن فيهما ما يقبح
في غيرهما وهما المعاتبة والاعتذار فإنه يحسن فيهما
تعديد الأيادي وذكر الإحسان وذلك غاية القبح
فيما عدا هذين الحالين **لا عيب** على من مال بطبعه
إلى بعض القبائح ولو أنه أشد العيوب وأعظم الرذائل
ما لم يظهره بقول أو فعل بل يكاد يكون أحمد ممن
أعانه طبعه على الفضائل ولا تكون مغالبة الطبع الفاسد
إلا عن قوة عقل فاضل **الخيانة** في الحرم أشد من

الخيانة في الدماء **العرض** أعز على الكريم من المال
ينبغي للكريم أن يصون جسمه بماله ويصون نفسه
بجسمه ويصون عرضه بنفسه ويصون دينه بعرضه
ولا يصون بدينه شيئا أصلا . **الخيانة** في الأعراض
أخف من الخيانة في الأموال وبرهان ذلك أنه لا يكاد
يوجد من لا يخون في العرض وإن قل ذلك منه وكان من
أهل الفضل . وأما الخيانة في المال وإن قلت أو كثرت فلا
تكون إلا من رذل بعيد عن الفضل **القياس** في أحوال الناس
فن تكذب في أكثر الأمر ويبطل في الأغلب واستعمال ما
يوجب صحته في الدين لا يجوز **المغفل** راض أن يغبن
عقله ولعله مع ذلك يستعظم أن يغبن في ماله فيخطئ
في الوجهين جميعا **لا** يذكر الغبن في ماله ويستعظمه
إلا لئيم الطبع دنيء الهمة مهين النفس **من** جهل

معرفة الفضائل فليعتمد على ما أمر الله تعالى ورسوله
صلى الله عليه وسلم فإنه يحتوي على جميع الفضائل **ورب**
مخوف كان التحفظ منه سبب وقوعه ورب سر كانت
المبالغة في طيه علة انتشاره : ورب إعراض أبلغ في
الاسترابة من إدامة النظر وأصل ذلك كله الإفراط الخارج
عن حد الاعتدال **الفضيلة** وسيطة بين الإفراط
والتقصير وكلا الطرفين مذموم والفضيلة بينهما محمودة
حاشا العقل فإنه لا إفراط فيه **الخطأ** في الحزم خير من
الخطأ في التضييع **من** العجائب أن الفضائل مستحسنة
مستثقلة والرذائل مستقبحة مستخفة **من** أراد
الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه فإنه يلوح له
وجه تعسفه **حد** الحزم معرفة الصديق من العدو
وغاية الخرق والضعف جهل العدو من الصديق **لا** تسلم

شبكة الألوكة www.alukah.net

عدوا لظلم ولا تطلبه وساو في ذلك رتبته وبين الضرين
وتحفظ منه وإياك وتقريبه وإعلاء قدره فإن هذا من
أفعال النوكى من ساوى بين عدوه وصديقه في التقريب
والرفعة لم يزد على أن زهد الناس في مودته وسهل
عليهم عداوته ولم يزد على استضعاف عدوه له وتمكينه
من مقاتله وإفساد صديقه على نفسه وإلحاقه بجملة
أعدائه **غاية** الخير أن يسلم عدوك من ظلمك ومن
تركك إياه للظلم وأما تقريبه فمن شيم النوكى الذين قد
قرب منهم التلف . وغاية الشر أن يسلم صديقك من ظلمك
وإنما إبعاده فمن فعل من لا عقل له ومن كتب عليه
الشقاء **ليس** الحلم تقريب العدو ولكنه مسالمته مع
التحفظ منهم **كم** رأينا من قادح بما عنده من المتاع
كان عليه سببا لهلاكه فإياك وهذا الباب الذي هو موضع

محض لا منفعة فيه أصلا **كم** شاهدنا ممن أهلكه كلامه
ولم نر قط أحدا ولا بلغنا أنه أهلكه سكوته فلا تتكلم إلا
بما يقربك من خالقك فإن خفت ظالما فاسكت **قلما**
رأيت أمرا أنكر وضيع الأوقات فلم يكن يعن **محن**
الإنسان في دهره كثيرة وأعظمها محنته بأهل نوعه من
الإنس **إذ أذى** الإنسان من الناس أعظم من أذيته بالسباع
الكلبة والأفاعي الضارية لأن التحفظ من كل ما ذكرنا
ممكن ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلا **الغالب**
على الناس النفاق ومن العجب أنه لا يجوز مع ذلك
عندهم إلا من نافقهم **لو** قال قائل إن في الطباع كرية
لأن أطراف الأضداد تلتقي لم يبعد من الصدق وقد
تجد نتائج الأضداد تتساوى فتجد المرء يبكي من الفرح
ومن الحزن وتجد فرط المودة يلتقي مع فرط البغضة

في تتبّع العثرات وقد يكون ذلك سببًا للقطيعة عند
من عدم الصبر والإنصاف. **كلّ** من غلبت عليه طبيعة
ما فإنه وإن بلغ الغاية من الحزم والحذر فإنّه مخدوع
إذا كوبر من قِبَلها. **كثرة** الريب تعلّم صاحبها الكذب
لكثرة ضرورته إلى الاعتذار بالكذب فيضرى عليه
ويستسهله. **أعدل** الشهود على المطبوع على
الصدق وجهه لظهور الاستحياء عليه إن وقع
في كذبة أو همّ بها. وأعدل الشهود على الكذّاب
لسانه لاضطرابه ونقض بعض كلامه بعضًا. المصيبة
في الصديق الناكث أعظم من المصيبة به. **أشدّ**
الناس استعظامًا للعيوب بلسانه هو أشدّهم استسهالًا
لها بفعله ويتبيّن ذلك في مشاتمات أهل البذاء
ومشاتمات الأرذال البالغين غاية الرذالة من الصناعات

الخسيسة من الرجال والنساء كأهل التعيّش بالزمير وكنس الحشوش
والحجامين ومتولّي المجازر وساكني دور الجمل المباحات لكراء
الجماعات والساسة للدواب فإنّ كلّ من ذكرنا أشرّ
الخلق طبعًا من تعرّض ليبغض بالقبائح وأكثرهم عيبًا
بالفضائح وهم أوغل الناس فيها وأشدّهم لها إلفًا
يرمي بالشتائم وكأنّ نظر العيب إلى العيب يصلح القلوب
ولا تبرد النفس [illegible] فإنّ ثَمّ الله يغني أمره
عنه. **أشدّ** الأشياء على الناس الخوف والهمّ
والمرض والفقر وأشدّها كلّها إيلامًا للنفس الهمّ للفقد
من المحبوب وتوقّع المكروه ثمّ المرض ثمّ الخوف ثمّ
الفقر ودليل ذلك أنّ الفقر يستعمل لطرده به الخوف
فيبذل المرء ماله كلّه ليأمن والخوف والفقر يستعملان
لطرد بهما ألم المرض فيغرّر الإنسان في طلب الصحّة ويبذل

مَالَهُ فِيمَا إِذَا أَشْفَقَ مِنَ الْمَوْتِ وَيَوَدُّ عَنْ نَفْسِهِ بِهِ
لَوْ بَذَلَ مَالَهُ كُلَّهُ وَيَسْلَمُ وَيَعْتِقُ وَالْخَوْفُ يُسْتَسْهَلُ
لِيَطْرُدَ بِهِ الْهَمَّ فَيُغَرِّرُ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ لِيَطْرُدَ عَنْهَا الْهَمَّ
وَأَشَدُّ الْأَمْرَاضِ كُلِّهَا أَلَمًا وَجَعٌ مُلَازِمٌ فِي عُضْوٍ مَا
بِعَيْنِهِ .: وَأَمَّا النُّفُوسُ الْكَرِيمَةُ فَالذُّلُّ عِنْدَهَا أَشَدُّ
مِمَّا ذَكَرْنَا وَهُوَ أَشَدُّ الْمَخُوفَاتِ عِنْدَ ذَوِي النُّفُوسِ
السَّمِيَّةِ .: وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي الْأَخْلَاقِ .: ه

إِنَّمَا الْعَقْلُ أَسَاسٌ فَوْقَهُ الْأَخْلَاقُ سُورُ
وَحُلِيُّ الْعَقْلِ بِالْعِلْمِ وَإِلَّا فَهُوَ بُورُ
جَاهِلُ الْأَشْيَاءِ أَعْمَى لَا يَرَى حَيْثُ يَدُورُ
وَتَمَامُ الْعِلْمِ بِالْعَدْلِ وَإِلَّا فَهُوَ زُورُ
وَزِمَامُ الْعَدْلِ بِالْجُودِ وَإِلَّا فَهُوَ جُورُ
وَمِلَاكُ الْجُودِ بِالنَّجْدَةِ وَالْجُبْنُ غُرُورُ

عِفَّ إِنْ كُنْتَ غَيُورًا مَا زَنَى قَطُّ غَيُورُ
وَكَمَالُ الْكُلِّ بِالتَّقْوَى وَقَوْلُ الْحَقِّ نُورُ
ذِي أُصُولُ الْفَضْلِ عَنْهَا حَدَثَتْ بَعْدُ الْبُرُورُ

وَأَيْضًا

زِمَامُ أُصُولِ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ عَدْلٌ وَفَهْمٌ وَجُودٌ وَبَاسُ ه
فَعَنْ هَذِهِ رُكِّبَتْ غَيْرُهَا فَمَنْ حَازَهَا فَهُوَ فِي النَّاسِ رَاسُ ه
كَذَا الرَّاسُ فِيهِ الْأُمُورُ الَّتِي بِإِحْسَاسِهَا يُكْشَفُ الِالْتِبَاسُ ه

فَصْلٌ فِي غَرَائِبِ أَخْلَاقِ النَّفْسِ

يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ لَا يَحْكُمَ بِمَا يَبْدُو لَهُ مِنِ اسْتِرْحَامِ الْبَاكِي الْمُتَظَلِّمِ وَتَشَكِّيهِ وَشِدَّةِ تَلَوِّيهِ وَتَقَلُّبِهِ وَبُكَائِهِ فَقَدْ وَقَفْتُ مِنْ بَعْضِ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا عَلَى يَقِينِ أَنَّهُ الظَّالِمُ الْمُعْتَدِي الْمُفْرِطُ الظُّلْمِ وَرَأَيْتُ بَعْضَ الْمَظْلُومِينَ سَاكِنَ الْكَلَامِ مَعْدُومَ التَّشَكِّي مُظْهِرًا لِقِلَّةِ الْمُبَالَاةِ فَيَسْبِقُ إِلَى نَفْسِ مَنْ لَا

يحقق النظر أنه ظالم، وهذا مكان ينبغي التثبت فيه
ومغالبة ميل النفس جملة، وأن لا يميل المرء مع صفة
الذي ذكرنا ولا عليها لكن يقصد الإنصاف بما يوجبه الحق
على السواء. **ومن عجيب الأخلاق** أن الغفلة مذمومة
وأن استعمالها محمود، وإنما ذلك لأن من هو مطبوع على
الغفلة يستعملها في غير موضعها وفي حيث يجب
التحفظ، وهو مغيب عن فهم الحقيقة فدخلت تحت
الجهل فذمت لذلك. وأما المتيقظ الطبع فإنه لا يضع
الغفلة إلا في موضعها الذي يذم فيه البحث والتعمق
والتغافل فهم للحقيقة وإضراب عن الطيش واستعمال
للحلم وتسكين للشر، فلذلك حمدت حالة التغافل
وذمت الغفلة. وكذلك القول في إظهار الجزع
وإبطانه، وفي إظهار الصبر وإبطانه، فإن إظهار الجزع

عند حلول المصائب مذموم لأنه عجز مظهر عن ملك
نفسه، فأظهر أمرها الإفراط فيه، بل هو مذموم في الشريعة
وقاطع عما يلزم من الأعمال، وعن التأهب لما يتوقع
حلوله مما لعله أشنع من الأمر الواقع الذي عليه حدث
الجزع، فلما كان إظهار الجزع مذموما كان ضده محمودا
وهو إظهار الصبر لأنه ملك للنفس واطراح لما لا قدرة
فيه، واقتدار على ما يعود وينفع في الحال وفي المستأنف.
وأما استبطان الصبر فمذموم لأنه ضعف في الحس وقسوة
في النفس وقلة رحمة، وهذه أخلاق سوء لا تكون إلا
في أهل الشر وخبث الطبيعة وفي النفوس السبعية الردية.
فلما كان ذلك نتيجة ما ذكرنا كان ضده محمودا وهو
استبطان الجزع لما في ذلك من الرحمة والشفقة والفهم
بقدر الرزية، فصح بهذا أن الاعتدال هو أن يكون المرء

جزوع النفس صبور الحس بمعنى ألا يضطرب في وجهه ولا
في جوارحه شيء من آثار الجزع. ولو علم ع والذ أي
الفاسد ما استتر به من فساد تدبيره في السالف لأنجح
به في استعماله فيما يستأنف وبالله التوفيق

فصل في تطلع النفس إلى المعرفة

ما تستتر به عنها من كلام مسموع أو شيء مرئي أو إلى
المزح وبقاء الذكر هذا أمر لا يكاد يسلم منهما أحد
إلا الساقط الهمة جدا أو من راض نفسه الرياضة التامة
وقمع قوة نفسه الغضبية قمعا كاملا ومداواة شهوة
النفس إلى سماع كلام تستتر به عنها أو رؤية شيء
أكتتم به عنه وربما أن يفكر في ما غاب عنها من هذا النوع
في غير موضعه الذي هو فيه بل في أقطار الأرض
المتباينة فإن اهتم بكل ذلك فهو مجنون تام الجنون

عديم عقل البتة وإن لم يتم له ذلك فليعلم أن الذي أخفي به
عنه الآن كسائر ما غاب عنه منه سواء سواء ولا فرق ثم
ليتدبر أختيهما جا على هواه، فليقل بلسان عقله لنفسه يا نفس
أرأيت لو لم تعلمي أن ما شيئا أخفي عنك أكنت تتطلعين
إلى معرفة ذلك فلا بد من لا فليقل لنفسه فكوني الآن كما
كنت تكونين لو لم تعلمي أن ما شيئا ستر عنك فتربحي
الراحة وطرد الهم وألم القلق وفتح صفة الشر وتلك
غنائم كثيرة وأرباح جليلة وأغراض فاضلة سنية يرغب
العاقل فيها ولا يزهد فيها إلا تام النقص وأما من
علت همته وفخره بأن يتعرف اسمه في البلاد ويبقى
ذكره على الدهور فليتفكر في نفسه وليقل لها
يا نفس أرأيت لو ذكرت بأفضل الذكر في جميع أقطار
المعمور أبد الأبد إلى انقضاء الدهور ثم لم يبلغني ذلك

ولا عُرفتُ به أكان لي في ذلك سرورٌ أو غبطةٌ أصلاً
فلا بُدّ من لا ولا سبيل إلى غيرها البتة فإذا صحّ ذلك فينبغي
فليعلم يقيناً أنه إذا مات فلا سبيل له إلى علم أنه يُذكر
أو أنه لا يُذكر وكذا الذكر إن كان حيّاً إذا لم يبلغه ثم ليتفكر
أيضاً في معنيين عظيمين أحدهما كثرة من خلا من الفضلاء من
الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أولاً الذين لم يبق
لهم على أديم الأرض عند أحد من الناس اسمٌ ولا رسمٌ ولا ذكرٌ
ولا خبرٌ ولا أثرٌ بوجهٍ من الوجوه ثم من الفضلاء الصالحين من
أصحاب الأنبياء والزهاد ومن الفلاسفة والعلماء والأخيار
وملوك الأمم الدائرة وبناة المدن الخالية وأتباع الملوك
الذين أيضاً قد انقطعت أخبارهم فلم يبق لهم عند أحد
علمٌ ولا لأحد بهم معرفةٌ أصلاً البتة فهل ضرّ من كان فاضلاً
منهم أو نقص من فضائلهم أو طمس من محاسنهم أو حطّ

درجتهم عند بارئهم عز وجل ومن جهل هذا الأمر فليعلم
أنه ليس في شيء من الدنيا خبر عن ملك الأجيال السالفة أبعد
مما بأيدي الناس من تاريخ ملوك بني إسرائيل وعقبه ثم ما بأيدينا
من تاريخ ملوك يونان والفرس وكل ذلك وكل ءالى لا
يتجاوز ألفي عام فأين ذكر من عمر الدنيا قبلها وأين البشر
قد دثر وفني وانقطع ونسي البتة وكذلك قال تعالى ورسلاً
لم نقصصهم عليك وقال تعالى وقروناً بين ذلك كثيراً وقال
تعالى والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله فعمل الإنسان وإن
يُذكر برهة من الدهر إلا كمن خلا قبل من الأمم الغابرة الذين
ذُكروا ثم نسوا جملة ∴ ثم ليتفكر الإنسان فيمن ذُكر بخير
أو بشر هل يزيده ذلك عند الله تعالى درجة أو يكسبه
فضيلة لم يكن حازها بفعله أيام حياته فإذ ليس كما قلنا
فالرغبة في الذكر رغبة غرور لا معنى له ولا فائدة فيه

الألوكة www.alukah.net

أملا لكن إنما ينبغي أن يرغب العاقل في الاستكثار
من الفضائل وأعمال البر التي يستحق من غيره الذكر
الجميل والثناء الحسن والمدح وحسن الصفة وهي التي
تقربه من ربه تعالى وتجعله مذكورا عنده عز وجل
الذكر الذي ينفعه ويحصل على فائدته ولا يبيد أثرا
الأبد وبالله التوفيق. شكر المحسن فرض واجب
وإنما يتم الأداء بالمعارضة له بمثل ما أحسن فأكثر ثم التهمم
بأموره والتأني بحسن الدفاع عنه ثم بالوفاء له حيا
وميتا ولمن يتصل به من سلفه وأهل كرامته ثم بالتمادي
على وده ونصيحته ونشر محاسنه بالصدق وطي مساويه
ما دمت حيا وتوريث ذلك عقبك وأهل ودك وليكن
من الشكر عونه على الأيام وتزيد نصيحته في ما ينوبه
عن غيبته ومشهده بل من عاون من أحسن إليه على باطل

فقد غشه وكفر إحسانه وظلمه وجحد إنعامه. وأيضا
فإن إحسان الله تعالى وإنعامه على كل أحد أعظم وأقدم
وأمننا من نعمة كل منعم دونه فهو تعالى الذي شق لنا الأبصار
الناظرة وفتق لنا الآذان السامعة ومنحنا الحواس الفاعلة
ورزقنا النطق والتمييز اللذين بهما استأهلنا أن يخاطبنا
وسخر لنا ما في السماء والأرض من الكواكب والغمام ولم
يفضل علينا من خلقه شيئا غير ملائكته المقربين الذين هم
عمار السموات فقط فأين تقع نعم المنعمين من هذه النعم
فمن قر رائه بشكر محسنا إليه بمساعدته على باطل أو بمحاباته
بما لا يجوز فقد كفر نعمة أعظم المنعمين عليه وجحد إحسان
أجل المحسنين إليه ولم يشكر ولي الشكر حقا ولا حمد أهل
الحمد أصلا وهو الله تعالى ومن حال بين المحسن إليه وبين
الباطل وأقامه على مر الحق فقد شكره حقا وأدى واجب

الألوكة

خفية عليه مستوفى ولله الحمد أولا وآخرا وعلى كل حال

في حضور مجالس العلم

إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك الا حضور مستزيد علما وأجرا لا حضور مستغن بما عندك طالب عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها فهذه أفعال الأراذل الذين لا يفلحون في العلم أبدا. فإذا حضرتها على هذه النية فقد حصلت خيرا على كل حال فإن لم تحضرها على هذه النية فجلوسك في منزلك أروح لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك. فإذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها وهي إما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية في المشاهدة وعلى الثناء عليك بقلة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس فإن لم تفعل فسل سؤال المتعلم فتحصل على هذه الأربع المحاسن وعلى خامسة وهي استزادة العلم وصفة سؤال المتعلم هو أن تسأل عما لا تدري لا عما تدري فإن السؤال عما تدريه سخف وقلة عقل وشغل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك وربما أدى إلى اكتساب العداوات وهو بعد عين الفضول فيجب عليك ألا تكون فضوليا فإنها صفة سوء فإن أجابك الذي سألت بما فيه كفاية لك فاقطع الكلام وإن لم يجبك بما فيه كفاية أو أجابك بما لم تفهم فقل له لم أفهم واستزده فإن لم يزدك بيانا وسكت أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد فأمسك عنه وإلا حصلت على الشر والعداوة ولم تحصل على ما تريد من الزيادة. والوجه الثالث أن تراجع مراجعة العالم وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضا بينا فإن لم يكن ذلك عندك ولم يكن عندك إلا تكرار قولك أو المعارضة بما لا يراه خصمك

معارضة فأمسك فإنك لا تحصل بتكرارك إلا على أجر
زائد ولا على تعليم ولا على تعلم بل على الغيظ لك ولخصمك
والعداوة التي ربما أدت إلى المضرات **وإياك**
وسؤال المتعنت ومراجعة المكابر الذي يطلب الغلبة
بغير علم فهما خلقا سوء دليلان على قلة الدين وكثرة
الفضول وضعف العقل وقوة الشغب وحسبنا الله
ونعم الوكيل **وإذا** ورد عليك خطاب بلسان أو
هجمت على كلام في كتاب فإياك أن تقابله مقابلة
المغاضبة الباعثة على المغالبة قبل أن تتيقن بطلانه
ببرهان قاطع **وأيضا** فلا تقبل عليه إقبال المصدق
له المستحسن إياه قبل علمك بصحته ببرهان قاطع
فتظلم في كلا الوجهين نفسك وتبعد عن إدراك
الحقيقة ولكن أقبل عليه إقبال سالم القلب عن

النزاع عنه والنزوع إليه لكن إقبال من يريد حظ نفسه
في فهم ما سمع ورأى والتزيد به علما وقبوله إن كان
حسنا أو رده إن كان خطأ فمضمون لك إذا فعلت ذلك
الأجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العميم مع الوقوف على
الحقيقة في أغلب الأمر **من** اكتفى بقليله عن كثير
ما عندك فقد ساواك الحر في الغنى ولو أنك قارون حتى إذا
تساويت في الكسب عن ما تشره أنت إليه فقد حصلت أغنى
منك بكثير ومن ترفع عما تخضع إليه من أمور الدنيا
فهو أعز منك بكثير **فرض** على الناس تعلم الخير والعمل
به فمن جمع الأمرين فقد استوفى الفضيلتين معا ومن
علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم وأساء في ترك
العمل به فخلط عملا صالحا وآخر سيئا وهو خير من آخر
لم يعلمه ولم يعمل به فهذا الذي لا خير فيه أمثل حالة وأقل

ذمًّا من أحد ينهى عن تعليم الخير ويصد عنه ولو لم
ينه عن الشر إلا من ليس فيه منه شيء ولا أمر بالخير إلا
من استوعبه لما نهى أحد عن شر ولا أمر بخير بعد النبي
صلى الله عليه وسلم وحسبك بمن أدى رأيه إلى هذا
فسادا وسوء طبع وذم حال وبالله التوفيق ه

قال أبو محمد رضي الله عنه فاعترض هذا منا
إنسان فقال كان الحسن رضي الله عنه إذا نهى عن شيء
لا يأتيه أصلا وإذا أمر بشيء كان شديد الأخذ به وهكذا
تكون الحكمة وقد قيل أقبح شيء في العالم أن يأمر بشيء
لا يأخذ به في نفسه أو ينهى عن شيء يستعمله ه

قال أبو محمد كذب قائل هذا وأقبح منه من لم يأمر
بخير ولا نهى عن شر وهو مع ذلك يفعل الشر ولا يفعل
الخير **قال أبو محمد** وقد قال أبو الأسود الدؤلي

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى بالعلم منك وينفع التعليم

قال أبو محمد إن كان أبو الأسود إنما قصد بالإنكار المجيء
بما نهى عنه المرء وأنه يتضاعف قبحه منه مع نهيه عنه
فقد أحسن كما قال الله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون
أنفسكم ولا يظن بأبي الأسود إلا هذا وأما أن يكون
نهى عن النهي عن الخلق المذموم فنحن نعيذه بالله من هذا
فهو فعل من لا خير فيه وقد صح عن الحسن أنه سمع إنسانا
يقول لا يجب أن ينهى عن الشر إلا من لا يفعله فقال الحسن
ود إبليس أنه ظفر منا بهذه حتى لا ينهى أحد عن منكر
ولا يأمر بمعروف **قال أبو محمد** صدق الحسن وهو قولنا
آنفا جعلنا الله ممن يوفق لفعل الخير والعمل به وممن

شبكة الألوكة www.alukah.net

يُبْصِرُ رُشْدَ نَفْسِهِ فَمَا أَحَدٌ إِلَّا لَهُ عُيُوبٌ إِذَا نَظَرَ فِيهَا شَغَلَتْهُ
عَنْ غَيْرِهِ وَتَوَفَّانَا عَلَى سُنَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
ءَامِينَ ءَامِينَ رَبَّ الْعَٰلَمِينَ ۞ تَمَّ كِتَابُ الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَرِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ۞